الفصل الرابع

رد فعل التجربة الدينية لليهودية والمسيحية عند العلماء والمفكرين والفلاسفة

لقد انتهينا من الفصل السابق ــ بما لا يدع مجال لأى شك ــ إلى خرافة ووثنية الفكر الدينى للديانتين اليهودية والمسيحية على نحو مطلق وأسطوريتهما معا . فكما رأينا من الفصل السابق ، **إذا ما اعتبرنا أن " الكتاب المقدس " كله موحى من السماء ، كما يعتقد فيه أهله ، وإذا ما إفترضنا أن " الكتاب المقدس " يخلو من أى تحريفات أو صياغة بشرية** ، فيكون معنى هذا أن الوحى الإلهي القادم من السماء ، لم يأت للإنسان (فى الديانتين اليهودية والمسيحية معا) إلا بالخرافات فى " الدين " ، والخرافات فى " الفكر الإلهى " ، وكذلك الخرافات فى " النصوص الكتابية " . فلم يأت هذا الوحى إلا بفكر متردد وهابط عن الأنبياء ، كما لم يأت إلا بفكر وثنى وأسطورى عن الإله ، وكذلك لم يأت هذا الوحى ، إلا بنصوص لا يمكن أن تندرج إلا تحت كل ما هو هابط وقبيح فى الأخلاق واللغة معا [1] .

---

[1] فى الحقيقة ، كما سبق وأن ذكرت ، أن الديانتين اليهودية والمسيحية بشكلهما الحالى ، هما بقايا دين سماوى حقيقى ، غارق فى خضم هائل من الوثنيات الفكرية البدائية ، جمعهما كتاب بشرى/سماوى واحد هو " الكتاب المقدس " بشكله الحالى . وهو الكتاب ؛ الذى يصر أهله على إعتباره أن كله موحى من السماء ، وليس به أى تحريفات أو صياغة بشرية ما . وبديهى أن هذا يضعهم فى وضع حرج للغاية ، ووجها لوجه مع الفصل السابق ، ليروا حقيقة ما يعبدون ، وحقيقة ما يعتقدون فيه .

وبديهى ، طالما وأن الكتاب المقدس يحوى بقايا أصول سماوية ، فلابد ــ إذن ــ أن يحوى بقايا من بعض مكارم الأخلاق ، وبعض بقايا من صفات " الله " الحقيقية . وبديهى أيضا أن مثل هذه اللقطات الحقيقية تمثل ، فى الواقع ، الوحى الإلهى الصادق القادم من السماء ، بينما باقى الوثنيات الفكرية ــ على النحو السابق ذكره فى الفصل الثالث ــ هى من صنع الإنسان البدائى وحده ، وليست وحيا سماويا ، بل ولا يمكن حتى اعتبارها صياغة معقولة لفكر بشرى ناضج عن الدين أو عن الإله أو عن كلاهما معا . وجدير بالذكر ، أنه لولا وجود بعض من تلك البقايا السماوية فى الكتاب المقدس (إلى جانب الفطرة البشرية الخاصة بإدراك وجود الله ، وفطرة التدين) ، لما بقيت الديانتين اليهودية

وقد خلفت هذه التجربة الدينية ــ كما سنرى ــ إنسان تملؤه الريبة والشك فى وجود الله والدين من جانب ، كما تملأ نفسه التردد والحذر من الاقتراب من الأديان بصفة عامة من جانب آخر . وليس هذا فحسب ، بل خلفت تلك التجربة أيضا ، **إنسانا فاقد الثقة فى مبدأ الوحي الإلهى القادم من السماء على نحو مطلق** .

وعلى الرغم من هذه التجربة المريرة التى مر بها الإنسان على يد تلك الديانتين ، كما سبق وأن رأينا فى الفصل الثالث ، إلا أن الإنسان لم يستطع أن ينفصل عن الإله ، كما لم يستطع أن ينفصل عن التدين بدين ما ..!! أو بمعنى آخر ، إن الإنسان ما زال لم يستطع أن يكف عن الاعتقاد فى الله ، كما لم يستطع التخلص من حاجته الفطرية للتدين بدين ما .

وهكذا خلفت التجربة الدينية الناتجة من فكر هاتين الديانتين ، إنسانا يشعر بالوحشة فى ذلك الكون ، ولم يعد لديه إلا الاعتماد على نفسه فى البحث عن الله .. وعن الدين ..!! وبديهى وهذا هو **حال تجربته الدينية السماوية كما يعتقد** ، إذن لم يعد لديه إلا الذهاب إلى الفلسفات الوضعية التى جاء بها الفكر البشرى ليتدين بها . أو بمعنى آخر ، لقد أصبح من البديهى أنه لم يعد للإنسان إلا البحث عن دين آخر فى قالب فلسفات فكرية من وضع البشر .

وكما سنرى حالا ؛ فإن جميع هذه الفلسفات الوضعية ــ منذ بدء الحضارة البشرية وحتى الفلسفات المعاصرة ــ لم تؤد بالإنسان إلى فكر يذكر عن الإنسان أو عن الله ، باستثناء ما هو مدرك بالفطرة فقط . ونقصد بالفطرة .. هو باستثناء ما هو موجود فى الفطرة البشرية من إدراك أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ موجود وينبغى أن يتميز بكمالات مطلقة ومتعالية ، كما وإنه ــ أى الله ــ يجب أن يكون مصدر هذا الوجود ، ومصدر حياة الإنسان وخلوده . أما التفاصيل الأخرى الخاصة بجميع المقاصد الإلهية فى هذا الشأن ، والخاصة بالإجابة على سؤال .. لماذا الوجود ؟ ولماذا الإنسان ؟ وما هي الغايات من الخلق ؟ فلا يمكن أن يقود إليها الفكر الفلسفى بنحو أو بآخر على الإطلاق . وسوف نرى أن الفلسفات المختلفة منذ أن نشأت ، لم تقد الإنسان إلا إلى بعض البراهين الدالة ، والقاصرة فى نفس الوقت ، على وجود الله فقط ، على النحو الذى سبق ذكره فى الفصل الثانى .

والمسيحية على مر التاريخ ، وحتى الآن . وكما سبق وأن ذكرت ، إن استخراج بقايا النصوص المقدسة من " الكتاب المقدس " ، أو تنقية فكر " الكتاب المقدس " من الوثنيات الفكرية الوارده به ، ليست من ضمن أهداف هذا الكتاب .

١. رد الفعل الدينى لدى العلماء والمفكرين والفلاسفة

يقول الفيلسوف الألمانى فريدريك نيتشه [٢] :

" إن الإيمان المسيحي معناه الانتحار المتواصل للعقل البشرى [٣] "

وعلى الرغم من أن " **نيتشه** " كان ينحدر من أسرة إكليركية ، حيث كان والده قسيسا وكان معظم أجداده من أمه وأبيه من رجال الدين (أى أنه كان ذى خلفية دينية مسيحية عريضة وواضحة) ، إلا أننا نجده يقول :

" إن الإله قد مات ، وسيظل ميتا ونحن الذين قتلناه "

وموت الإله من وجهة نظر " فلسفة نيتشه " ، كما يصفها فلاسفة آخرون ، معناه تحرر الإنسان من الدين ، ولكنهم يضيفوا قائلين .. بأن هذه الفلسفة ، قد أدت بالإنسان إلى **عصر العدمية (Nihilism)** [٤] ، وبذلك لم يعد للإنسان إلا ذاته . وتأكيد الإنسان لنفسه أو إثباته لذاته يقوم

---

[٢] فريدريك نيتشه : **Friedrich Nietzsche** (١٨٤٤ - ١٩٠٠) ؛ فيلسوف ألمانى ، يعتبر من وجهة نظر كثيرين من الفلاسفة أمثال " مارتن هيدجر " (١٨٨٩ - ١٩٧٦) و " كارل يسبرز " (١٨٨٣ - ١٩٦٩) ، أحد المؤسسين الأوائل ، أو على الأقل ، أحد المفكرين الأوائل الذين مهدوا الطريق إلى " مذهب الوجودية الحديثة " . وقد بشر " نيتشه " بـــ " الإنسان الأعلى " أو " السوبرمان " ، بعد أن مات الإله على يديه . وكان نيتشه عدوا صريحا للديمقراطية وللعقلانية التى تقوم عليها . وكان يتطلع إلى ميلاد أخلاقيات جديدة تنصر الأقوياء على الضعفاء ، وتزيد من اللامساواة الاجتماعية ، بل وتخلق نوعا معينا من القسوة .

[٣] " الوجودية " ، جون ماكورى ؛ ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ، مراجعة د. فؤاد زكريا . دار الثقافة للنشر والتوزيع . صفحة : ٧٤ /٧٥ .

[٤] العدمية (Nihilism) ؛ هى فلسفة ترفض القيم والمعتقدات التقليدية وتقول بأنها باطلة ولا أساس لها من الصحة ، كما تقول بأن الوجود لا معنى له ولا غناء فيه . والعدمية بهذا المعنى قديمة ، وقد قال بها بعض الهراطقة فى القرون الوسطى ، ومن ثم اتخذت معانى متفاوتة عبر العصور . كما قال بعض العدميين بأن المبادىء الأخلاقية لا أساس موضوعيا لها ، وقال البعض الآخر بأن الأحوال فى المجتمع هى من السوء بدرجة تجعل من الهدم مرغوبا فيه لذاته وبمعزل عن أى برنامج إنشائى أو بناء . وقد انتشر استخدام هذا المصطلح فى الأوساط الأدبية والسياسية الروسية خلال القرن التاسع عشر بعد أن روج له " تورغنيف " فى تصويره لشخصية " بازاروف : **Bazarov** " فى رواية " الآباء والأبناء : **Fathers and Sons** " (عام ١٨٦٢) . وقد دعت بعض الفئات العدمية الروســـية إلى الإصلاح الثورى فى روسيا ، واستعانت فى ذلك بالإرهاب والإغتيال .

على خلفية أساسية ، هى اننا موجودون فى عالم عبثى لا معقول (Absurd) [٥] ليس فيه " إله " . وهكذا ، لم توصد الديانتان اليهودية والمسيحية طريق الدين أمام المفكرين والفلاسفة فحسب ، بل جعلتهم يكفرون بكل ما هو دينى على نحو عام ومطلق أيضا .

وبديهى أن العبثية فى الخلق لاتتفق وفكر الكمال الإلهى ، الذى انتهى إليه فكر فلاسفة آخرين ، ولهذا نرى القرآن المجيد يـرد على هذه الفرية وينفى هذ الفكر ، أى فكر العبثية ، بقوله تعالى :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾

(القرآن المجيد : المؤمنون {٢٣} : ١١٥ - ١١٦)

كما وإن خلق هذا الوجود ليس لهوا إلهيا ، لأن هذا أيضا يتعارض وفكر الكمال الإلهى ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) ﴾

(القرآن المجيد : الأنبياء {٢١} : ١٦ - ١٨)

فلامعقولية هذا الوجود لا تتفق وفكر الكمال الإلهى ، حيث يجب أن يكون الوجود موجه نحو غايات عليا وحكمة بالغة ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) ﴾

(القرآن المجيد : القمر {٥٤} : ٥)

بمعنى ؛ فأي نفع تفيد النذر لمن أعرض عن رؤية هذه الحكمة .

---

[٥] العبثية (Absurdism) ؛ هى الفلسفة التى تقول بأن الإنسان موجود فى عالم لاعقلانى وخالى من المعانى . أنظر كذلك الفلسفة الوجودية بند ٣. ٥. ٢. من هذا الفصل .

وهكذا ؛ قضية الوجود قد حسمت ، بأنها ليست لهوا إلهيا ، كما وإن الخلق ليس عبثا إلهيا . كما وإن الوجود ليس قضية عديمة الجدوى ولا طائل من ورائها ، بل هى قضية محددة الغايات واضحة المعالم ، يقوم الله ــ سبحانه وتعالى ــ بتعريفها وتحديد معالمها بشكل قاطع فى قرآنه المجيد ، وقد سبق وأن عرضنا جانب منها فقط ، ولكن للقصة بقية سنتناولها بالتفصيل فى كتابات أخرى إن شاء الله تعالى .

كان **نيتشه** يرى أن " **العقلية الدينية** " تتناقض تماما مع " **العقلية العلمية** " ، فالروح الدينية فى رأيه تفتقر إلى كل فهم للقوانين الطبيعية . كما كان يرى أن نمط الحياة اليونانية القديمة أرفع وأرقى مستوى من نمط الحياة المسيحية ؛ ذلك أن العقائد اليونانية (أو أساطيرها الدينية) لم تكن تقف فى وجه القوى الطبيعية والعقلية للإنسان ، بينما العقائد المسيحية واليهودية عنده عقبة تحول دون نمو هذه القوى . وهو يحمل بوجه خاص على تصور الألوهية فى المسيحية واليهودية : فهذا التصور مرتبط برغبة الإنسان فى معاقبة نفسه ، ومرتبط بشعوره بالذنب (راجع قصة الفداء والصلب) ، وهذه الرغبة والشعور هى التى تتجسم فى فكرة الله ذاتها ، فتصوره على نحو مضاد للإنسان تماما ، وتنسب إليه من الأمور ما يقف فى وجه الطبيعة البشرية ويعوق سيرها التلقائى [٦] .

ولم يرى **نيتشه** فى **المسيح** إلا إنسانا ــ وليس إلها ــ أساء فهم دوافعه النفسية ، وهو ما أدى به إلى الشعور بالحاجة إلى الخلاص . ولو أحسن ــ **المسيح** ــ فهم دوافعه ، وتخلص من أخطائه الذهنية والنفسية ، لما كان مسيحا على الإطلاق [٧] . **وكان نيتشه ينظر إلى المسيحية على أنها لا تتضمن التضحية بالروح البشرية فحسب ، بل وتشويه هذه الروح واستئصالا لحريتها كذلك ، ولذا فإن علينا أن نجاوز المسيحية ونضع مكانها نظرية " الإنسان الأعلى : The Superman " .**

والمتتبع للفصل السابق ، كما سبق وأن أشرت ، لن يجد صعوبة فى التعرف على ما فى الديانتين اليهودية والمسيحية ، بشكلهما الحالى من وثنيات واضحة ، وهو ما دفع بـــ " نيتشه "

---

٦ " نوابغ الفكر الغربى : نيتشه " د. فؤاد زكريا ؛ دار المعارف . ص : ١٣٥ وما بعدها .

٧ بديهى ينسب نيتشه الديانة المسيحية بشكلها الراهن إلى المسيح نفسه . ولكن الواقع غير ذلك ؛ فكما رأينا ــ من الباب السابق ــ أن مسيحية اليوم هى ديانة وضعية إلى حد بعيد ، ساهم فى وضعها كل من بولس الرسول ورجال دين من بعده (فى صور المجامع الكنسية) ، متأثرين جميعهم بعقائد وثنية كانت سائدة فى تلك الفترات الزمنية المناظرة .

إلى التوجه فى فلسفته الإلحادية إلى هذا الفكر الوجودى . حيث لا يمكن الاحتفاظ بمثل هذه الوثنيات الصارخة ، والبادية للعيان ، إلا بالتضحية بالعقل من جانب ، والتضحية بالفطرة النقية ــ والتى ركبها الله سبحانه وتعالى فى الإنسان ــ من جانب آخر . ومن البديهى أيضا أن تلك الديانتين هما اللتان قادتا الإنسان إلى الفلسفات المادية الأخرى المماثلة . فهما ، فى الواقع ، يمثلان الدوافع الحقيقية وراء ظهور تلك الفلسفات . ويقف إنسان القرن العشرين ليؤكد على هذه التجربة الفاشلة له مع الديانة المسيحية ، حيث يقول الدكتور **وولتر أوسكار لندبرج** [٨] ، كرد فعل طبيعى لهذه الديانة ، فى مقال له :

" أن جميع المنظمات الدينية المسيحية تبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم فى إله على صورة إنسان بدلا من الاعتقاد بأن الإنسان قد خلق خليفة لله على الأرض [٩] . وعندما تنموا العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية فإن تلك الصورة التى تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم فى التفكير أو مع أى منطق مقبول . وأخيرا عندما تفشل جميع المحاولات فى التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمى ، **نجد هؤلاء المفكرين يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة الله كلية . وعندما يصلون إلى هذه المرحلة ويظنون أنهم قد تخلصوا من أوهام الدين ، وما ترتب عليها من نتائج نفسية ، لا يحبون العودة إلى التفكير فى هذه الموضوعات ، بل يقاومون قبول أية فكرة جديدة تتصل بهذا الموضوع ، وتدور حول وجود الله .** "

وبديهى أن نبذ فكرة الله ، ليس معناها رفض الديانة المسيحية فحسب ، بل معناها أيضا رفض أى فكر دينى ــ على نحو مطلق ــ بدون ترو حتى وإن كان الدين صحيحا .

---

[٨] " الله يتجلى فى عصر العلم " ، تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين . ترجمة د . الدمرداش عبد المجيد سرحان ، ص ٥٠ . (سبق التعرض لهذا النص فى بند ١. ٣. ١٢. من الفصل الثانى ولكن من منظور إقرار المجامع الكنسية على وجود الصور والتماثيل داخل الكنائس ، وتكراره هنا ضرورة لتكاملية فكر رد الفعل الدينى) .

[٩] أنظر الملحق الرابع من هذا الكتاب ، لمزيد من التفاصيل عن قصة خلق الإنسان ، والفكر الداروني فيها .

ويتكرر فكر الدكتور **وولتر أوسكار لندبرج** ، مرة أخرى وبشكل مباشر ، **عند مفكر آخر هو عالم الفيزياء الكمية ؛ بول ديراك** [١٠] ، الذى يسجل لنا إنطباعة ليس فقط عن الديانة المسيحية ، بل يسجل لنا إنطباعه عن الأديان بوجه عام ، كنتيجة حتمية ورد فعل طبيعى لتجربته الدينية الفاشلة مع الديانة المسيحية ، فنجده يقول [١١] :

[إننى لا أتفق مبدئيا **مع الخرافات الدينية** ، وذلك لأن **خرافات الأديان** المختلفة تتناقض سويا .. إن **علينا الإعتراف بأن الأديان مليئة بالمزاعم والخرافات الخاطئة** ، والتى لا توجد لها مبررات فى عالم الواقع . فإذا نظرنا إلى المصطلح " **إله** " فإنه بالقطع يعتبر من : " **نتاج الخيال الإنسانى** " ، لأنه يعكس تفسير الإنسان البدائى لقوى الطبيعة ، ولم تعد هذه التصورات الآن ضرورية بعد فهمنا لطبيعة هذه القوى .

إن إفتراض " **إله قادر على كل شىء** " لن يساعدنا فى أى شىء ، ولكن من جانب آخر ، فإن هذا الإفتراض يؤدى إلى إثارة قضايا عديمة المغزى مثل السؤال .. لماذا يسمح الإله بهذا البؤس والظلم فى هذا العالم ؟ وبإضطهاد الأغنياء للفقراء ..!! وبكل المآسى الأخرى ..!! على الرغم من قدرته على القضاء على كل هذا .

وإذا كان الدين مازال يعلم أو يدرس فى عصرنا الحالى ، فإن ذلك لا يرجع إلى أن الصورة التى ورد بها ما زالت تقنعنا ، ولكن السبب فى ذلك يكمن فى إرضاء الشعوب أو الناس البسطاء [١٢] . إن حكم الناس الهادئين يعتبر أسهل من حكم الناس غير الراضين . إن ذلك

---

[١٠] بول أدريان موريس ديراك : **Paul Adrien Maurice Dirac** ؛ عالم إنجليزى (١٩٠٢ – ١٩٨٤) . نال جائزة نوبل (بالمشاركة) فى الفيزياء عام ١٩٣٣ ، عن أعماله فى ميكانيكا الكم (Quantum Mechanics) ولف الإلكترون (Electron Spin) ، وعلىإكتشافة للمادة المضادة (Anti-Matter) . وقد شغل ديراك منصب أستاذ الرياضيات فى جامعة كمبردج حتى عام ١٩٧٤ ، وهو نفس المنصب الذى شغله إسحق نيوتن من قبل ، ويشغله حاليا عالم الفيزياء " ستيفن هوكنج : Stephen Hawking " ، المشهور ببحوثه فى الثقوب السوداء (Black Holes) .

[١١] " الجزء والكل ــ محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية " تأليف فيرنر هيزنبرج . ترجمة محمد أسعد عبد الرؤف . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ص ١٤٢ . ومؤلف الكتاب ، هو فيرنر هيزنرج (١٩٠١ – ١٩٧٦) ، الحائز على جائزة نوبل فى الفيزياء لعام ١٩٣٢ ، عن أعماله فى ميكانيكا الكم ، وإكتشافة لــ " مبدأ الشك أو اللاتحديدية : The Uncertainity Principle " . وهو مؤسس معهد ماكس بلانك للفيزياء بجوتنجين ، بألمانيا .

[١٢] أغفل " ديراك " ــ هنا ــ الفطرة البشرية ، أو بمعنى أدق لم يتنبه إلى وجودها ، وهى الفطرة التى تدفع البشرية بكاملها نحو الاعتقاد في وجود " إله " ، واعتناقها لدين ما .

يسهل عملية إستغلال الناس واستهلاكهم . إن **الدين نوع من الأفيون** الذى يعطى للشعوب لغوايتها بالأحلام السعيدة ، وتعزيتها فى الظلم الواقع عليها . ومن هنا تنشأ ببساطة الرابطة بين القوتين السياسيتين الكبيرتين .. **الدولة والكنيسة ، فكلاهما يحتاج إلى الخيال القائل بأن هناك إله محسنا ــ إن لم يكن فوق الأرض ففى السماء ــ الذى يثنى على الذين لا يتمردون ضد الظلم ، والذين يؤدون إلتزاماتهم بصبر وهدوء** . وبالطبع فإن قول الصدق ، إن هذا الإله هو فقط من نتاج الخيال الإنساني .

إننى لا أستطيع أن أعتقد إلا فيما هو حق . أما بالنسبة لكيفية تصرفى فإننى أستنتجها بالفعل وفقا للموقف المعين . إننى أعيش مع جماعة بشرية أقر لأفرادها نفس الحقوق فى الحياة التى أقرها لنفسى ، وإذن فإنه يتحتم علي أن أعني بالتوازن العادل بين المصالح المختلفة ، وكل ما عدا ذلك فهو غير ضروري أو لازم]

(انتهى)

وهكذا لم ير " ديراك " سوى إننا من صنعنا الدين ، كناتج طبيعي من " **الفكر الدينى** " الخرافي الذي أتت به الديانتين اليهودية والمسيحية .. على النحو الذى بيناه فى الفصل السابق . وربما يلخص بول ديراك بكلماته هذه ؛ فكر الفلسفة الوضعية وفكر الفلسفة الماركسية فى آن واحد ، كناتج عادل وطبيعى من ميراثه الديني الفاشل مع فكر الديانتين اليهودية والمسيحية .

إن التجربة الدينية لأصحاب المذاهب الوضعية على نحو عام ، مع الديانة المسيحية الموروثة ، قد إنعكس آثارها ، على هذه الفئة ، فى صورة إحباط شديد لديهم ، لم يؤد بهم فقط إلى رفضهم لديانتهم الموروثة فحسب ، بل أدى هذا أيضا ، إلى إتخاذهم موقفا عدائيا وكراهية ظاهرة لكل الإديان الأخرى بغض النظر عن إمكانية أن يكون أحدها هو الدين الصحيح أو الدين الحق . ولقد خلص أصحاب المذاهب الوضعية ، مستندين فى ذلك إلى تجربتهم الدينية الفاشلة إلى أن :

" جميع الأديان تحوى قدرا من الخرافة هذا إن لم تكن كلها خرافة "

وهكذا قبل أصحاب المذاهب الوضعية ، والمتمثلة فى فكر عالم فيزياء ميكانيكا الكم ، **بول ديراك** ، هذه العبارة " **كمبدأ أو قانون عام** " يصلح أو ينطبق على كل الأديان . وبديهى إن إطلاق الأحكام العامة ، لا يتم بمثل هذه البساطة . فإصدار حكم عام مثل هذا ؛ يستلزم دراسة مستفيضة ومتأنية لجميع الحالات الممكنة لكل الأديان ، والتى يمكن أن تقع تحت طائلة هذا

الحكم أو القانون العام ، **وذلك حتى يمكن أن يأخذ هذا القانون صفة العمومية** ، التى يقولون بها ؛ وحتى لا يكون هذا المنطوق ، هو قانونا أو حكما جزئيا يصلح لمجموعة من الأديان ، ولا يصلح لأديان أخرى . وبديهى إن مثل هذه الدراسة لكل الأديان ، لم يقم بها أحد من هذه الفئات الرافضة للدين وللإله ، بل اعتمدوا فقط على تجربتهم الفاشلة مع الديانتين اليهودية والمسيحية ، ثم قاموا بتعميم نتائجها على الدين الصحيح مهما كانت صحة وصدق مضامينه .

وكلمة " **دين** " عند تلك الفئات ، قد استخدمت بذات المدلول لها فى كل الأديان . فكل دين يحتوى لديهم ، بدرجة ما ، على قدر من الخرافات المتناقضة ، بغض النظر عن الاختلافات التى تنشأ فى المضامين الداخلية بين الأديان الباطلة والدين الصحيح . ولذلك فجميع الأديان من وجهة نظر هذه الفئة ، **لها نفس النتيجة التى تم الإنتهاء إليها من خلال بحثهم فى ميراثهم الدينى** . وهم بهذا المفهوم كمن إستخدم كلمة " **بناء** " بنفس المدلول بغض النظر عن طبيعة هذا البناء .. من كونه " **بناء متهدم وقبيح** " أو كونه " **بناء شامخ ومثير** " .. أو كونه " بين هذا وذاك " ، فجميع المبانى من وجهة نظر هذه الفئة هو " بناء متهدم وقبيح " وحسب . تماما مثل جميع الأديان تحوى قدرا من الخرافة وحسب .

وبديهى أن " **الرأى المسبق** " عن المضامين المختلفة للقضية الدينية ، بدون دراسة ما تشمل الديانات المختلفة ، هو الفكر السائد عند هذه الفئة ، التى يمثلها بول ديراك . **وبديهى إن مثل هذا الأسلوب مرفوض تماما فى الفكر الفيزيائى . فالنتيجة العامة أو القانون العام فى الفيزياء ، لا يصاغ بشكله النهائى من دراسة حالة خاصة أو ظاهرة واحدة قد يصلح القانون لوصفها بدقة عالية ، ولكنه يفشل فشلا ذريعا عند تناولة ظواهر أخرى مماثلة فى الوصف .**

فالقاعدة العلمية تقول : بأن تطبيقا واحدا (أو مثالا واحدا) **يتناقض مع** النظرية الفيزيائية أو القانون العام التجريبى ، ليس كفيلا بأن يهدم هذه النظرية أو القانون التجريبى فحسب ، بل كفيلا بأن يقوض أركانهما أيضا ، حتى وإن كان هناك مئات التطبيقات الدالة على صدق هذه النظرية أو القانون التجريبى . والأمثلة الدالة على هذا كثيرة فى مجال الفيزياء العامة ، نذكر منها على سبيل المثال ، أن الحكم على **النظرية الذرية لـ " نيلز بوهر "** [١٣] ، كان قد أعلن بعد ظهور النظرية بعشرة أعوام ، وجاء كما يلى على وجه التقريب :

---

[١٣] **عالم دانيمركى (١٨٨٥ – ١٩٦٢) نال جائزة نوبل فى الفيزياء عام ١٩٢٢ .**

[أن النظرية الذرية تصلح لوصف أطياف الهيدروجين والهيليوم المتأين بدرجة عالية من الدقة ، ولا بأس بها فى حالات الذرات الأحادية التكافؤ . ولكنها لا تصلح مطلقا فى حالات الذرات عالية التكافؤ] .

وعلى هذا الأساس قضى على هذه النظرية و أصبحت فى ذمة تاريخ العلوم . وعلى ذلك فإن القانون العام فى الفيزياء ، لا يصاغ بصورته النهائية حتى يثبت يقينا بأنه ينطبق على كل الظواهر التى يتكلم عنها بدقة كافية . وهنا فقط يحق لنا بوصفه بالعمومية ، أو بأنه **قانون فيزيائى عام** . كما قد يعاد النظر فى صحته مرة أخرى إذا تم اكتشاف ظاهرة جديدة لا يصلح القانون بتفسيرها ، أو لا يصفها بالدقة الكافية .

ومن هنا نرى أن فكر الفئة التى يمثلها عالم الفيزياء بول ديراك ، **لا ينتمى إلى التفكير العلمى** من قريب أو بعيد (على الرغم من كونه عالما في الفيزياء ..!!) . حيث يتم إطلاق الأحكام العامة بدون سند إلا من خلال تجربة خاصة ، أو تجربة ذاتية ــ ومع ديانات وثنية ــ لا تصلح لمثل هذا التعميم . ومن المفارقات الغريبة أننا نجد علميين كثيرين ينتمون إلى مثل هذا الفكر ، أى إلى فكر **بول ديراك** ، غير العلمي . غير إننا يجب ألا نغفل رأى العلميين المدركين لهذه الحقيقة تماما ، حيث يرد عالم الفيزياء **فيرنر هيزنبرج** [١٤] على **بول ديراك** بقوله :

[إن الدين لا ينهدم بمثل هذه البساطة التى ذكرتها الآن ، **فربما يملك دينا آخر ، مثل الدين الصينى القديم** [١٥] بالنسبة لك قوة إقناع أكبر من الدين الذى يظهر فيه تصور الإله المتجسد ، أو الإله الإنسان] .

---

[١٤] " الجزء والكل ــ محاورات فى مضمار الفيزياء الذرية " تأليف فيرنر هيزنبرج . ترجمة محمد أسعد عبد الرؤف . صفحة ١١١ .

[١٥] ديانات الصين على حسب الترتيب الزمنى لها هى : الطاوية (Taoism) ، والكونفوشية ، والبوذيـــة . وليس مستطاعا أن نقول أن بعض الصينيين طاويون ، والبعض الآخر كونفوشيون ، وغيرهم بوذيون . فيمكن أن يكون الصينى طاويا وكونفوشيا وبوذيا فى نفس الوقت .

والحكمة الصينية التقليدية ، فى الطاوية ، تقول بأن فى جوهر كل الأشياء مبدأ إلهى ، أو شريعة يسمونها " الطريق أو الطاو : Tao " (تنطق كذلك التاو) ، وهى ــ أى الشريعة ــ أقرب ما تكون إلى ما يسميه الرواقيون " الطبيعة " التى يجب أن تنسجم معها كل الأشياء فى السماء وعلى الأرض . ومعرفة " الطريق أو الطاو : Tao " هو أسمى أنواع المعرفة ، وهو يمثل إرادة السماء ، وهو الإسم الذى يطلق على " القوة العليا الأسمى " (أى الله) التى تضبط شئون البشر ، وهى قادرة على كل شيء ، عالمة بكل شيء . وقد إنحدرت الطاوية فيما بعد ، وأصبحت فكرا يؤمن بحلول الآلهة ، لا يبالى ولا يميز بين الأشياء ، ويقف موقفا سلبيا تجاه المثل الأخلاقية . ثم إنحدرت ، بعد ذلك ،

ثم نأتى إلى حجة أخرى قد ساقها ديراك ، فى تبريره لرفض الدين والإله معا ، ويتفق معه فيها كثير من العلماء ــ أو بمعنى أدق كثير من مدعي العلم بكل أسف ــ وهى الحجة التى تقول (كما يقول عالم الفيزياء **بول ديراك**) :

[أن مجرد فهمنا للقوانين الطبيعية ، والعلاقات التى تحكمها كاف تماما لدحض فكرة " الله " ، حيث لم نعد فى حاجة إلى هذه الفكرة .. بعد أن إنجلت الأمور لدينا ..] ..!!

ففى الحقيقة ، إن هذه حجة ــ هى الأخرى ــ متهافته للغاية ، وتعكس بدرجة واضحة العجز البشرى عند تناوله قضية أو قضايا لا يوليها العناية الكافية أو الوقت الكافى لدراستها وفهمها ، حتى وإن كان من أقطاب الفكر فى مجالات أخرى . ففى الواقع ، إن مثل هذا الفكر أو هذا المفهوم لا يعكس إلا جهلا واضحا ، وقصورا ملحوظا فى إدراك حقيقة الإنسان لنفسه ، وفى حقيقة إدراكه لهذا الوجود . فيجب أن يكون مفهوما جيدا :

.. إن القضية فى العلوم الطبيعية تدور فقط حول استنباط أو معرفة ما تقوم به الطبيعة بالفعل ، من خلال القوانين السرمدية التى قد سنها الله ــ سبحانه وتعالى ــ لتجري عليها الطبيعة ، كما يجرى عليها أيضا الإنسان والأكوان والمخلوقات الأخرى المختلفة . ولا أحد يدعى أو يجرؤ أن يدعى من الفيزيائيين أو من غيرهم ، بالقول بأكثر من هذا . ودعنا نفصل هذا المعنى بالمثال البسيط التالى :

لقد أدركنا واكتشفنا قانون الجذب العام بين الأجسام المختلفة .. بل وذهبنا إلى أبعد من هذا ، وحددنا مقدار القوة المتبادلة والناتجة عن تفاعل أى جسمين متباعدين ، والكيفية التى تتغير بها

إنحدارا آخر على مر الزمن ، فأمست عقيدة مسرفة فى تعدد الآلهة ، وممارسة فنون السحر للوقاية من الشياطين . وقد تشابكت فى تعدد الآلهة مع الهندوسية ، وشاركتها نفس المصير . وقد ظل الإعتقاد شائعا فى الصين لعدة قرون بأن " لاتسو " أب الطاوية ، هو الذى علم بوذا البوذية ، وأن البوذية هى ببساطة : صورة أجنبية من الطاوية .

وكما نرى ، فإن هذا هو غاية معرفة " فيرنر هيزنبرج " عن الأديان ، فهو لم ير على الساحة البشرية ، غير الدين الصينى القديم ــ هذا إلى جانب المسيحية ــ والذى يمكن ، أو يحتمل أن يكون أحسن حالا منها (أى من المسيحية) من حيث قوة الإقناع ، ولكنه كان لا يعلم شيئا عن " الإسلام العلمي " .

هذه القوة ؛ فوجدناها (أى وجدنا هذه القوة) تتناسب عكسيا مع مربع المسافة بينهما ، وطرديا مع حاصل ضرب كتلتيهما [١٦] . والسؤال المطروح الآن هو :

من الذى قرر أن تكون العلاقة الجذبية بين الأجسام المتباعدة على هذا النحو الذى نراها به الآن ، وليست على نحو آخر ؟ بديهى ليس نحن .. فبديهى هناك من قرر أن تكون العلاقة الجذبية بين الأجسام على هذا النحو الموجودة به فعلا . والسؤال التالى هو :

هل اكتشافنا لهذه العلاقة هو الذى حدد شكل القانون أو هو الذى حدد النحو الذى يتغير به هذا القانون الآن ..؟! بديهى لا أيضا ، فمن البديهى أن معرفتنا لهذا القانون ليس له علاقة من قريب أو من بعيد بشكل القانون ذاته .

ففى الواقع ، إن الإنسان ليس له دور فيما يحدث فى الطبيعة على الإطلاق ، أو فيما يرى . كما وأنه فى أحسن أحواله ، يستطيع ــ فى أحيانا قليلة جدا ــ أن يفهم أو أن يعى ما يدور حوله وبقدر محدود وغير كامل . إن الإنسان يقف دائما موقف المتفرج على ما يحدث له ، تماما كما يقف موقف المتفرج على ما يحدث حوله فى الطبيعة . **ففى الحقيقة ؛ إن صورتنا لم تتغير كثيرا عن الإنسان البدائى أمام الظواهر الطبيعية وأمام الكون .**

فعلى سبيل المثال ؛ فقد كان الإنسان البدائى ينسب " **ظاهرة حدوث الرعد** " مثلا والصوت الصادر عنه ، وبدون الدخول فى التفصيلات العلمية ، ببساطة شديدة وبذكائه الفطرى ، إلى إرادة عليا تعلو على إرادته ، وهذه الإرادة هى المسئولة عن حدوث هذه الظاهرة وبهذا الشكل .

وفى الحقيقة ؛ إن هذا الموقف لم يتغير ــ الآن ــ كثيرا عن موقف الإنسان البدائى ، وبعد غاية علمنا من قوانين طبيعيات الجو وظواهره ، وقوانين القوى الكهرومغناطيسية ، وقوانين الديناميكا الحرارية ، وقوانين الصوتيات ، وقوانين انتشار الموجات ، **وهى جملة فروع العلم المتشابكة التى تدخل فى تكوين هذه الظاهرة** . فماذا بعد أن علمنا بكل هذا ..؟! لا شيء ..!! فبعد كل هذا العلم الفيزيائي الخاص بوصف وتحليل الظاهرة الطبيعية .. تأكدنا أنها تحدث بإرادة تعلو فوق إرادة الإنسان .. وهذه الإرادة هي التي حددت القوانين الفيزيائية المختلفة التي

---

[١٦] يسمى هذا القانون بـ " قانون الجذب العام " ، كما يسمى أحيانا بـ " قانون التربيع العكسى " . وعلى الرغم من أن العلاقة التى يمثلها هذا القانون هى علاقة من أبسط العلاقات الطبيعية والموجوده فى الفيزياء العامة ، إلا إنها تعتبر من أعتى ألغاز الكون التى لم يستطع الإنسان أن يفك أو أن يحل طلاسمها حتى الآن .

تتحكم في سير وحدوث الظاهرة ..!! أي نظرة الإنسان البدائي للظاهرة الطبيعية .. هي نفس نظرتنا لها ــ الآن ــ حتى بعد غاية علمنا للقوانين التي تتحكم في سير الظاهرة .

فعملية تكون **السحب الركامية التى تسبق حدوث الرعد** ، مازالت تجرى على نفس النحو أو نفس النمط السابق التى كانت تجرى عليه أيام الإنسان البدائى ، ومازالت الظاهرة تحدث بنفس الكيفية التى كانت تحدث عليها أيام الإنسان البدائى .. إن غاية علمنا بالظاهرة ، لم يغير من الظاهرة فى شيء .. كما وأن الظاهرة مازالت تحدث بناءا على قوانين أو سنن سرمدية محددة ، قد قدرتها إرادة عليا لتجرى عليها . إننا بعلمنا هذا لم نتجاوز معنى المتفرج ، الذى أصبح يعى قليلا ما يرى ، وبطريقة أكثر دقة عن ذى قبل ..!! لكن ما زالت الإرادة العليا تعمل بنفس الكيفية التى كانت تعمل بها من قبل ، كما سوف تعمل بها من بعد . فهذه الإرادة هى التى قررت حدوث كل هذا من قبل وحدوثه من بعد ، وما زالت نفس السنن التى كانت تجرى على الظاهرة من قبل ، هى التى تجرى عليها الآن ، وسوف تجرى عليها من بعد .

إن غاية البحث العلمى الآن ، هو البحث عن مجالات أو أساليب جديدة ومبتكرة ، لاستغلال الظواهر الطبيعية ، من حيث كونها موجودة بالفعل ، مثل وجودنا تماما سواء بسواء ، كما وإن هذه الظواهر مسخرة للإنسان ــ فعلا ــ وليس هو الذى يسخرها . فالإنسان يتعلم كيف يركب الحصان (وليس الأسد) ويسوسه ولكنه لا يقوم بصنعه . فهناك من قام بصنع الحصان له وسخره له وجعله مستأنسا ، كما سخر له الأسد أيضا ولكن فى حدود أقل من الحصان ، بينما نجد **بعوضة** لا تكاد ترى تقلق مضجعنا من نوم عميق ولا نستطيع استئناسها .

وهنا يجب أن أشير إلى اكتشافنا للقوانين الرياضية التى تحكم الظواهر الطبيعية ، هو بمثابة العثور على كتاب التشغيل لماكينة بالغة الدقة قد صنعت خصيصا من أجلنا ، وأرسلت إلينا من قبل صانع (خالق) قادر متعال ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣) ﴾

(القرآن المجيد : الجاثية {٤٥} : ١٣)

أأدرك الإنسان معنى ﴿ ... جَمِيعًا مِّنْهُ ... ﴾ ؟ ، وأليس هذا مدعاة للإنسان للتفكر **فيمن سخر لنا هذا** .. كما جاء فى قوله تعالى ﴿ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ . فهل فهمنا

لكتاب تشغيل ماكينة ما (The operating manual) ، يعني نفى وجود صانع لهذه الماكينة ، سبحان الله ..؟!!!

إن الإنسان دوره سلبى تماما فى هذا الشأن . فالإنسان يقف من هذه القوانين موقف المتفرج فى جميع حالاته . فالإنسان ليس هو الذى سن قوانين الظواهر على النحو الذى نراها عليه .. وليس هو الموجد لهذه الظواهر .. وليس هو الذى سخرها لنفسه .. وليس هو الذى يجريها .. وليس هو الذى يستطيع أن يجعلها تكف عن الفعل أو العمل .. **وليس هو الذى قد حدد لنفسه حدود إدراكه بها** .. وقل ما شئت : عن ليس هو ..!! كما وأننا لا نفهم من الظواهر الطبيعية إلا بالقدر المسموح لنا به فقط ، وبدرجة معينة تكفى للتعامل مع الظاهرة ، وفى أضيق الحدود .. هذا إلى جانب أننا لا نملك تعديل القوانين الفيزيائية أو خلق قوانين جديدة لم يكن لها وجود سابق من قبل .

إن قول ــ عالم الفيزياء النظرية ــ بول ديراك :

[إن مجرد فهمنا للقوانين الطبيعية والعلاقات التى تحكمها كاف لدحض فكرة " الله " ، حيث لم نعد فى حاجة إلى هذه الفكرة .. بعد أن إنجلت الأمور لدينا]

هو ، فى الواقع ، قول لا يمكن أن يصدر إلا عن فرد مغيب العقل تماما . وهو قول مكافىء تماما لمن يقول :

[إن مجرد فهمنا للماكينة الجديدة ، من خلال كتاب التشغيل الخاص بها ، والذى أرسله الصانع لنا معها ، كاف لدحض فكرة أن يكون للماكينة صانع ، وذلك بعد أن إنجلت لدينا طريقة عمل وتشغيل الماكينة]

ما هذا العبث الفكرى ..؟! وهكذا يصل التناقض الذاتى فى الصياغة الفكرية فى فكر العلماء ، إلى درجة صارخة من الوضوح ..!! بل وتكاد تصل هذه الصياغة إلى حد البلاهة !!

فبديهى أن عبارة كهذه ليست عبارة منطقية على الإطلاق . فبديهى إن وجود صانع للماكينة هى من الأمور البديهية التى لا تحتاج إلى برهان ، لأنها نتيجة طبيعية لوجود الماكينة نفسها . كما وإن فهمنا لطريقة عمل الماكينة ، لو صح الإدراك والتعقل ، سوف يلقى لنا مزيد من الضوء على الحكمة البالغة والقدرة الفائقة لهذا الصانع ، نظرا للإتقان المذهل الذى جاءت عليه هذه

الماكينة . ولهذا نجد الله ـ عز وجل ـ ينهى الآية السابقة بقوله تعالى : ﴿... إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَـاتٍ لِّـقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

ولا أدرى كيف لم يدرك عالم فيزيائى مثل **بول ديراك** عبارة خاطئة من الناحية العلمية بمثل هذه البساطة . ولكن لا نملك إلا أن نقول بأن كلامه هذا هو نتيجة حتمية ، تفرضها عليه الصورة المتردية عن الديانة الموروثة ووثنيتها الفادحة التى يراها ديراك ، والتى يعتقد بأنها الديانة الوحيدة الصحيحة والمتاحة لديه ..!!

وتبقى كلمة أخيرة ، هو أن **ديراك** لم يدرك حقيقة بسيطة أخرى ، ألا وهى إنه هو نفسه جزء بسيط من هذه الماكينة ، وإن كتاب التشغيل يشمله هو الآخر أيضا كما يشمل الظاهرة . حيث سبق تجهيزه هو نفسه ، أى سبق تجهيز وتركيب ديراك نفسه ـ فى المصنع الإلهى ـ ليكون بالكيفية التى نراه عليها ، وعلى النحو الذى أراده الله له ، وذلك حتى يمكن أن يستوعب ظواهر مثله تماما .. من منطلق قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّـهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِى خَلَقَـكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَـكَ (٧) فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) ﴾

(القرآن المجيد : الإنفطار {٨٢} : ٦ – ٧)

أوعى الإنسان قوله تعالى .. ﴿ ... فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ ..!! **فإننا ـ اولا وأخيرا ـ من تركيب (أو خلق) الله عز وجل ..**

ثم تبقى كلمة أخيرة يجب إضافتها ، حول خوف الإنسان البدائى من الظواهر الطبيعية ، وهو الخوف الذى يجعجع به الماديون ، ويقولون بأن هذا هو الدافع الحقيقى بالإنسان إلى التدين ونشأة الدين . ونقول أن هذا الخوف لم يتجاوز معناه عن : " **الخوف الغريزى أو الفطرى** " الذى زرعه الله فينا . وهو الخوف اللازم لحفظ النوع من الفناء والذى يعرف باسم " غريزة حب البقاء " . وبهذا لم يتجاوز الخوف من الظاهرة .. المعنى من أن يمتد أثر الظاهرة لتصيب الإنسان بالضرر أو أن تقتله .

وبديهى إن هذا الخوف سوف يتلاشى إذا ما تم العلم والإحاطة بالتأثيرات المختلفة للظاهرة ومدى تأثيرها على الإنسان ، وبهذا يستطيع الإنسان أن يتقيها . ومع ذلك فما زال الإنسان

يخاف من الظواهر التى لا يمكن التنبؤ بإمتدادها المكانى والزمانى وبالآثار الناجمة عنها ، مثل الزلازل والفيضانات . إن الخوف هنا هو خوف غريزى للمحافظة على الحياة ، وليس خوفا من الظاهرة نفسها ، لأن هذا الخوف سوف يتلاشى إذا ما علم الإنسان بأبعاد الظاهرة وتأثيراتها . أما الـدافع وراء التدين والإيمان بالله ، فهو دافع غريزى آخر ومستقل عن باقى الغرائز الأخرى .

أن الإنسان لا يمثل ــ فى الواقع ــ إلا أحد الكمات فى هذا الكون شأنه فى ذلك شأن المخلوقات الأخرى ، بل وشأنه فى ذلك أيضا شأن القوانين الطبيعية نفسها ، ولكن ، الله سبحانه وتعالى ، قد قضى بأن يكون هذا المخلوق ذى طبيعة مغايرة . ونعنى بذلك أن الإنسان لا يمثل نفسا ذات امتداد محدود فى الزمان والمكان فحسب ، بل هو ــ فى الواقع ــ يمثل وجودا تلتقى فيه حدود عدة عوالم أو أكوان مختلفة ومتداخلة (متطابقة) مع بعضها البعض . أو بمعنى أدق ، أن " الله " ــ سبحانه وتعالى ــ قد قدر للإنسان خلقا لا ينتمى إلى كون واحد محدد ، بل خلق الإنسان كحدود إلتقاء لعدة أكوان متداخلة ومتطابقة (تحكمها قوانين مغايرة تماما لما نألفه فى كوننا هذا الذى نحيا فيه) ، حيث يتحدد طبيعة ظهوره فى أي منها (أى يتحدد ظهور الإنسان فى أى من هذه الأكوان المتطابقة) على حسب فعله وحركته تحكمه في هذا قوانين سرمدية عليا ، لا نعلم عنها ــ الآن ــ شيئا إلا شذرات متطايرة من محيط هائل من المعرفـة الكلية من العلم الإلهي اللامتناهي وفي حدود المسموح بها . وليس معنى هذا إن هذه القوانين غيبية بشكل مطلق ، ولكنها قوانين نستطيع أن نمسها من بعيد ، وتحت ظروف خاصة جدا ، وكما يخبرنا بها الله ــ سبحانه وتعالى ــ فى قرآنه المجيد . وسوف نعرض لها بالتفصيل فى كتابات تالية إن شاء الله [١٧] .

ثم نأتى إلى **حجة ثالثة** قد ساقها ديراك فى معرض كلمته ، والتى تستند إليها هذه الفئات المنكرة للقضية الدينية فى تأكيد رفضها للدين . وهى الحجة التى تقول :

بـ " أن الدين يستخدم فى استغلال الناس واستهلاكهم "

فكما يبدو من هذه الحجة إن تجربة هذه الفئة لم تخرج عن الإطار الفكرى لميراثهم الدينى . وبديهى إن الديانة اليهودية أو المسيحية كما جاءت على النحو السابق ، **تسمح بمثل هذا الإستغلال والاستهلاك الإنسانى للإنسان ، وليس هذا فحسب بل تسمح كذلك بتدمير الإنسان للإنسان وتقديمه قرباتا وضحية على مذبح الإله الوثنى ، كما تسمح للإنسان بظلم الإنسان**

---

[١٧] أنظر " الدين والعلم .. وقصور الفكر البشرى " لنفس مؤلف هذا الكتاب .

والغدر به وخيانته أيضا ..!! وقل ما شئت .. وحدث بلا حرج كما رأينا فى الفصل السابق . وحتى الأحكام الأخلاقية التى جاءت فى هاتين الديانتين ــ اليهودية والمسيحية ــ لا يعول عليها كثيرا ، فى إطلاق العدالة بمعناها العام أو المطلق . فعلى سبيل المثال نجد النص ــ المقدس ــ التالى الذي يقول :

[[١٦] لاَ تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ .]

(الكتاب المقدس : سفر الخروج {٢٠} : ١٦)

وبديهى يكون في المقابل ، إنه يمكنك أن تشهد الزور على غير قريبك . وهو ما يسمح بشيوع الفاحشة والفوضى واستهلاك الإنسان للإنسان . وتلك هذه الفوضى الأخلاقية مرفوضة تماما فى الوحى الإلهي الصادق ، فالحق والعدل يجب أن يجريان على نحو متسق ومطلق ومستقل حتى عن النفس أو الوالدين أو ذوى القربى ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) ﴾

(القرآن المجيد : النساء {٤} : ١٣٥)

هكذا بمنتهى الوضوح والصراحة والحزم ﴿ ... كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ... ﴾ ، فالشهادة هنا مطلقة ولله وليس لبشر . والقوام بالقسط معناه أداء الحق والعدل بمقياس لامتغير أى بمقياس مطلق منزه عن الأهواء حتى لو كان هذا على الإنسان نفسه . ولا ﴿ ... تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا ... ﴾ ، فالإنسان يجب ألا يتبع هواه فى العدل ، فالعدل هو " قضية مطلقة " أى قضية مستقلة وبعيدة تماما عن أهواء النفس .

فإذا جئنا إلى النواهى الإلهية ــ فى الديانة الحقة ــ نجد قوله تعالى :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا

تَــقْرَبوا مَالَ اليَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ [18] لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْــتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَــى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) ﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ١٥١ - ١٥٢)

[من إملاق : من فقر]

فأين الاستهلاك الآدمي ـــ هنا ـــ في مثل هذه النصوص ، فكما نرى ﴿ .. وَإِذَا قُلْــتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَــى .. ﴾ ، أي لا تحيز ما ، وأين الإستهلاك الآدمي مع النص الإلهي ﴿ .. وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ بِالقِسْطِ .. ﴾ . وأين الإستهلاك الآدمي في نص كهذا ..

﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا مُّبِينًا (١١٢) ﴾

(القرآن المجيد : النساء {٤} : ١١٢)

[التفسير : الخطيئة هي في العمد وغير العمد ، أما الإثم فلا يكون إلا في العمد ، والبهتان هو الفرية والكذب]

فبديهي أن **الدين الذي يستخدم في استعباد واستغلال الناس واستهلاكهم ليس دينا** ، إنما هو مجموعة من القوانين الوضعية وضعها أفاقين ولصوص وخونة لخدمة أغراضهم ، ولا يمكن أن يكون هذا دينا ، من صنع إله خالق ذي كمالات مطلقة . ولهذا نجد الرسول (ﷺ) يصف بعثته بقوله :

" إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " (متفق عليه)

وننتهي من هذا ، بأن فكر عالم الفيزياء بول ديراك لم يتجاوز معناه ، عن وصف ميراثه الديني الشخصي ، وهو أن الدين يستخدم في استعباد واستغلال الناس واستهلاكهم ، وبديهي أن الوحي الإلهي الصادق من هذا كله بريء .

---

[18] هنا نرى الإحكام المذهل في الصياغة القرآنية ؛ فجواب القضية الجزئية : " ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده " ، نراه قد أدمج تحت حكم القضية الكلية التالية لها : " وأوفوا الكيل والميزان بالقسط " . وبهذا المعنى يكون الاستكمال الضمني للقضية الأولى هو أن اليتيم سوف يحصل على ماله بدقة بالغة بالميزان وبالقسط ، أي بحق مطلق ، بعد بلوغه سن الرشد والتعقل .

ولهذا تأتى الفلسفة التنويرية (The Englightenment) فى القرن الثامن عشر ، لتراها تتمرد بشكل مباشر على الفكر المسيحى ، وتقول بأنه يجب إصلاح ما أفسدته الكنيسة . فقد كان من بين أهم برامج الإصلاح لدى فلاسفة التنوير ، برنامج الإصلاح الدينى (Religious Reform) . حيث حاولوا **فصل الأخلاق عن اللاهوت والميتافيزيقا** . كما اعتبروا أن التطبيقات الكنسية خاطئة ، واعتقدوا أن الديانة الطبيعية (Natural Religion) هى الديانة الصحيحة ، **والتى تعنى الإيمان ــ المبنى على العقل ــ بوجود الخالق ، ولكنها لا تعترف بوجود الوحي** (كما يجيء به الكتاب المقدس) . كما أكدوا على ضرورة فصل الكنيسة عن الدولة [١٩] . ولكن لم تقدم هذه الفلسفة أى معلومة إيجابيـــة عن الله .. كما لم يتجاوز فكر فلاسفتها عن معنى " **الديانة الطبيعية** " [٢٠] ، أي فكر الفطرة البشرية عن وجود الله ، والحاجة إلى التدين ..

ومن فلاسفة عصر التنوير بإنجلترا ، الفيلسوف الإنجليزى **جون تولاند** (١٦٧٠ - ١٧٢١) ، فقد كان من المؤلهين الطبيعيين الذين يذهبون إلى القول بوجود إله صانع ، ولكنه لا يعترف بالوحى ولا بالشرائع ولا بالرسل ، كرد فعل طبيعى للوثنيات التى تحويها الديانة المسيحية ، وانسحاب تجربته الدينية على الدين بصفة عامة ..

والفيلسوف والسياسى الداهية **فرنسيس بيكون** (١٥٦١ - ١٦٢٦) الذى كان يخدم فى بلاط ملك إنجلترا **جيمس الأول** (والذى كان يظن نفسه ضليعا فى اللاهوت) ، لم يستطع القول بإنكار اللاهوت الطبيعى للإله (أى إنكار الإله فى الصورة البشرية) ، وبدلا من محاولة مناقشة قضاياه المختلفة مناقشة داخلية ، نقل المشكله كلها إلى تقسيمات الفلسفة ونهجها حتى لا يتورط فى معركة كثيرة المزالق مع الكنيسة .

ففى التقرير الذى رفعه بيكون ، إلى الملك جيمس الأول ملك إنجلترا ، عن كيفية إصلاح الحالة العامة للتعليم ، أوصى ــ بيكون ــ وصية أساسية هى ؛ **بأن تتم المحافظة على هوة عميقة بين العلوم الطبيعية من ناحية ، وبين الدين واللاهوت المقدس من ناحية أخرى . ذلك**

---

[١٩] " المرجع فى الفكر الفلسفى " دكتورة نوال الصراف الصايغ ؛ دار الفكر العربى . ص : ٢٠٠ .

[٢٠] وتُعَرَّف " الديانة الطبيعية " باسم " مذهب الربوبية : Deism " : وهو المذهب الفكرى الذى يدعو إلى الإيمان بدين طبيعى مبنى على العقل لا على الوحي ، حيث يقول هذا المذهب بأن الله قد خلق الكون وهو يجرى الآن بدون تدخل منه . تماما كما تقول بأن صانع الساعة قد صنعها ، وهى تجرى الآن بدون الحاجة إليه بعد أن صنعها .

لأن الانسجام والتكامل العلمي يتطلبان معا فصلا صارما بين هذين الجانبين . حيث كان يقول أن الفيلسوف الذى ينغمس فى اللاهوت (أى فى الفكر الدينى) يخلق مذهبا خرافيا جامحا ، على حين أن اللاهوتى (أى رجل الدين) الذى يهتم اهتماما مغاليا بالفروق الفلسفية والكشوف العلمية ينتهى به الحال إلى الكفر والزندقة . ولهذا رأى أن المسلك السليم الوحيد هو **إقامة ثنائية حادة بين العلوم الطبيعية والوحى الإلهى** . وكان يقول أنه لسوء الحظ أن اللاهوت الطبيعى (أى الإله المتجسد) يقيم جسرا بين كلا من الميدانين ، وبالتالى ينبغى حرمانه من هذا الدور الوسيط [٢١] .

وهكذا يقرر الفيلسوف فرنسيس بيكون ، بإسلوب سياسى ، باستحالة الجمع بين العلم والدين المسيحي لأن هذا يؤدى بالإنسان إلى الكفر بالمسيحية ، وكذا استحالة الجمع بين العقل والدين المسيحى لأن هذا يؤدى إلى تأسيس مذهب خرافى جامح .

والفيلسوف الإنجليزى المادى ، **توماس هوبز : Hobbes** (١٥٨٨ - ١٦٧٩) كان يرى :

" أن **الدين ليس أمرا من أمور الفكر** ، وإنما هو أمر من أمور الاعتقاد .. ، ولا يجوز الخلط بين العقيدة والعقل . فحيث ينتهى العقل تبدأ العقيدة ، وحيث ينتهى العلم يبدأ الإيمان [٢٢] " وهكذا كان يرى **هوبز ، أن الدين والعقل لا يجتمعان ، كما وأن الدين والعلم لا يجتمعان** .

ويأتى الفيلسوف الألمانى ؛ **فيرباخ : Feuerbach** (١٨٠٤ - ١٨٧٢) ، ليهاجم الدين المسيحى ، ويذهب إلى أن الشىء الحقيقى ليس هو " الله " ، ولا الوجود ، وإنما هى المعطيات الحسية فقط . ويضع فيرباخ ما يسمى **بدين الإنسان مكان الدين المسيحى** ، ويقول : " **إن الشىء الإنسانى هو الشىء الإلهي** " . وهو بذلك يتبنى نزعة إلحادية بحته [٢٣] ، كناتج طبيعى ، كما نرى ، لما تمخضت عنه الديانة المسيحية من فكر وثنى إلى أبعد الحدود .

ثم تأتى الفلسفة الوجودية فى فكر سارتر .. بعبثيتها (وهي معذورة في هذا لخرافة ووثنية الديانة المسيحية) .. وليس للموت فى ذاته عند سارتر أهمية خاصة . فقط إنه العبث

---

[٢١] " الله فى الفلسفة الحديثة " ، جيمس كولنز ، ترجمة فؤاد كامل . الناشر مكتبة غريب . ص : ١٣٢/١٣٣ .

[٢٢] " تمهيد للفلسفة " د. محمود حمدى زقزوق ، دار المعارف . ص : ١٨٢ .

[٢٣] المرجع السابق ؛ ص : ٢١١/٢١٢ .

الأخير ، وهو لا يقل عبثا عن الحياة ذاتها ، فالموت يظهر عند سارتر فى الفلسفة الوجودية كـ " جزء من الصفقة " (أي صفقة الحياة) ، على حد تعبيره [٢٤] .

ولكن ماذا يحدث عندما تحين ساعة رحيل المرء الكافر فعلا من هذه الحياة ؟ أو ماذا يحدث عندما يواجه الإنسان الملحد الموت فعلا ويصبح فى لحظاته الأخيرة ؟ إننا لا نرى إلا الفزع يغلفه ويحيط به من كل جانب ..!! **إنه يدرك فى تلك اللحظات الأخيرة ـ بشعور فطرى ـ ما هو مقدم عليه من هول ، وأنه لم يحقق الغايات من خلقه** ..!! والآن ؛ قد حانت لحظة المواجهه مع الحقيقة الكاملة أو الحقيقة المطلقة وجها لوجه ..!! ويحاول ذلك الإنسان النجاة .. النجاة بأى شكل .. وبأى ثمن .. ولكن إلى أين يذهب ؟ حيث يقول المولى عز وجل (له ولأمثاله) :

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) ﴾

(القرآن المجيد : التكوير {٨١} : ٢٦ – ٢٨)

[التفسير : إن هو إلا ذكر للعالمين : أى ما القرآن المجيد إلا تذكرة وموعظة للعالمين / لمن شاء منكم أن يستقيم : أى لمن أراد منكم تحرى الحق والصواب]

وتتلاشى الفلسفات فى تلك اللحظات الأخيرة ، وتمر أحداث حياة المرء فى لحظات أمام عينيه كشريط سينمائى معاد بسرعة هائلة ، ليدرك أنه قد أضاع الحياة فيما لا يفيد وفى سفسطة كلامية لا قيمة لها ، بدلا من إخلاص النية فى البحث عن الله .. **وفى محاولة يائسة أملا فى النجاة** ، يتمسك المرء بأى شىء ..!! فلا يجد لديه إلا الوثن القديم .. فيعود إليه .. أملا فى النجاة .. ولكن أى نجاة هذه ..؟!

ويأتى الموت الحقيقى لسارتر .. ويفزع ذلك الفيلسوف التائه الضال كأمثاله ..!! ويطلب سارتر قبل موته من رفيقة حياته " **سيمون دى بوفوار** " أن تأتى له **بقس** ..!! وتبدى (هذه البلهاء ـ هى الأخرى ـ والجاهله معا ، بهول هذا الموقف) دهشتها الشديدة واستنكارها لما يطلبه ذلك المسكين ، ثم تقول له : سآت لك بالكاردينال ، فيرد عليها بقوله : لا .. لا أريد كاردينالا .. إنه **غشاش للإله** (أي أنه أدرك الإله في لحظاته الأخيرة وكما تمليه عليه الفطرة السوية) ، إنما أريد قسا متواضعا ، من قرية متواضعة مغمورة ، وجاءت له بالقس ..!!

---

٢٤ " الوجودية " ، جون ماكورى ؛ ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ، مراجعة د. فؤاد زكريا . دار الثقافة للنشر والتوزيع . ص : ٢٨٧ .

واعترف له سارتر بهزيمته [٢٥] أمام الموت .. أملا فى النجاة ..!! ولكن أى نجاة هذه ..!! حيث يصف حالهم المولى عز وجل فى محكم تنزيله بقوله تعالى :

﴿ ... وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (٩٣) وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤) ﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ٩٣ - ٩٤)

سبحان الله ..!! **ويتجاوز تفسير هذه الآيات إلى ما وراء الإعجاز العلمى** ، والرؤية القاصرة للبشرية العاجزة ، لذا سيرجأ تفسيرها إلى كتابات أخرى إن شاء الله [٢٦] . وتترى الآيات العلمية والفيزيائية بعد هذه الآيات عميقة المعانى ، فى هذه السورة (الأنعام) ، لينهى المولى (ﷻ) هذه الفقرة ، بنفيه للبنوة التى تدعيها المسيحية عليه ، ثم بوصفه لنفسه ببعض كمالاته الإلهية التى لا نستطيع أن نحصيها عليه ــ سبحانه وتعالى هو محصيها ــ كما يصف كتابه العزيز بالبصائر ، وهى الرؤية المستيقنة التى لا يبقى معها أى شك أو ريبة ، كما جاء فى قوله تعالى لنبيه (ﷺ) ليخبر عنه :

﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢) لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) ﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ١٠١ - ١٠٤)

وهذا هو حال من لم يدرك هذا ..

---

[٢٥] " د. رشدى فكار (المفكر الإسلامى) فى : حوار متصل حول مشاكل العصر " ، خميس البكرى ، مكتبة وهبة . ص : ٦١ .

[٢٦] أنظر " الدين والعلم ... وقصور الفكر البشرى " لنفس مؤلف هذا الكتاب .

﴿ ... وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) ﴾

(القرآن المجيد : النحل {١٦} : ٣٣)

والغريب أن موقف سارتر هذا كان قريب الشبه جدا من موقف فولتير [٢٧] إزاء الموت . فقد طلب فولتير ــ بعد أن تدهورت صحته بشكل واضح ــ قسا ليسمع إعترافه قبل موته ، ولكن القس رفض تقديم الغفران له ما لم يوقع على إعترافا بإيمانه بالمذهب الكاثوليكى إيمانا راسخا . ولكن فولتير ثارت ثورته لهذا الطلب وكتب بدلا من ذلك بيانا قدمه إلى سكرتيره (واجنر) ذكر فيه :

[إننى أموت على عبادة الله ، ومحبة أصدقائى ، وكراهية أعدائى ، ومقتى للخرافات والأساطير الدخيلة على الدين]

ووقع على هذا البيان فى الثامن والعشرين من فبراير عام ١٧٧٨ . ومات فولتير بعد هذا البيان بثلاثة أشهر . وفى مقالة له موجهة إلى صديقه الملحد هولباخ ، نجده يقول :

[إن الخرافات الدخيلة على الدين تتحكم فى عالمنا البائس . هذه الخرافات والأساطير هى أقسى عدو لنا يصرفنا عن عبادة الله عبادة خالصة تليق به . دعنا نمقت شبح الخرافات التى أدخلت على الديانات فشوهتها . وأولئك الذين يحاربون الخرافات هم أصحاب الفضل فى الجنس البشرى . إن هذه الخرافات ثعبان يهز الدين .. ويجب علينا سحق رأسه من غير أن نجرح الأم التى تطعمه] [٢٨] .

وننهى هذه الفقرة بالقول ، متفقين فى ذلك مع ما يقوله الفيلسوف الفرنسى روجيه جارودى [٢٩] عن العالم المسيحي ومبشريه :

---

٢٧ فولتير : Voltaire ــ الإسم الحركى لـ " فرنسوا مارى أروط : Francois Marie Arouet " ــ (١٦٩٤ - ١٧٧٨) مؤلف وفيلسوف فرنسى . يعتبر أحد أكبر رجال الفكر فى القرن الثامن عشر . تميز بقصصه الفلسفية التى ترجمت إلى أكثر من مائة لغة . أهم قصصه ؛ قصة " كانديد : Candide " ، وهى عبارة عن تحقيق فى طبيعة الخير والشر عند الإنسان .

٢٨ " قصة الفلسفة " ، ول ديورانت . ترجمة فتح الله المشعشع . مكتبة المعارف ، بيروت . ص (٣١٢/٣٠٢) .

٢٩ " روجيه جارودى ــ لماذا أسلمت ؟ نصف قرن من البحث عن الحقيقة " دراسة أعدها محمد عثمان الخشت . مكتبة القرآن . ص : ٩٠ .

[بأنه تكاد تكون من سخرية الأقدار أنهم يريدون أن يفرضوا على الآخرين مسيحية يهزأون منها في كل عمل من أعمالهم]

ولا أملك إلا قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) ﴾

(القرآن المجيد : الزمر {٣٩} : ٦٤)

٢. وتعود دورة الحياة (The Circle of Life) للتكرار ..

وتعود التجربة الدينية ، للديانتين اليهودية والمسيحية معا ، بالإنسان ــ ذلك التائه الحائر ــ مرة أخرى إلى محاولة سبر غور المعرفة الإلهية ، معتمدا فى ذلك على نفسه ..!! وعلى نفسه فقط ... بعد أن تأكد أن ما لديه من أديان (متأثرا فى ذلك بتجربته مع هاتين الديانتين الوثنيتين) لا يصلح لأن يكون مصدرا للمعرفة الإلهية ، كما إنه لا يصلح لأن يكون منهاجا إنسانيا أو إلهيا ، يمكن أن يتدين به إنسان عاقل ، وذلك على الرغم ، من المحاولات المضنية التى بذلها ويبذلها أئمة هاتين الديانتين لإسباغ نوع من الشرعية ــ الشكلية فقط وليست المنطقية ــ عليهما .

وتعود دورة الحياة (The circle of life) بالإنسان مرة أخرى إلى الحالة التى كان عليها منذ آلاف السنين فى الماضى . ويقف إنسان العصر الحديث الآن ، نفس موقف إبراهيم (عليه السلام) قبل بعثته ، وهو يحاول التعرف على " الله " معتمدا فى ذلك على نفسه ، وعلى فكره فقط . ويشرح لنا القرآن المجيد حيرة إبراهيم (عليه السلام) فى البحث عن " الله " ، بالكلمات الإلهية المحكمة ، فى قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) ﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ٧٦ - ٧٨)

[أفل : غاب / بازغا : طالعا]

فالآيات تبين بوضوح ــ كما سبق وأن تعرضنا لها فى الفصل الثانى ــ أن غاية فكر ابراهيم ــ عليه السلام ــ قبل بعثته ، لم يتجاوز فكر إدراك أن الله موجود ، وأن من كمالات " الله " ألا ينبغى له أن يغيب عن مخلوقاته ؛ بل يجب أن يكون فى حضور دائم ومستمر معهم . ولكن من هو " الله " ؟ .. أهو كوكب ؟ .. أهو قمر ؟ .. أهو الشمس ؟ بديهى لا ؛ لأنها جميعها قد أفلت .. أى غابت ، ولا ينبغى لكمال " الله " أن يغيب عن مخلوقاته .

ولم يتغير الفكر البشرى فى معناه كثيرا ، متمثلا فى صفوة مفكريه من العلماء والفلاسفة ، عن فكر إبراهيم (عليه السلام) قبل بعثته . فغاية فكر الإنسان عن " الله " إنه موجود .. ولكن من هو الله ؟ وماهى صفاته ؟ وما هى كمالاته ؟ فجميعها أمور لا يملك الإنسان التنبؤ بها مستندا فى ذلك إلى أى خبرة عملية أو واقعية ، أو أى فكر ــ بإستثناء الفطرة ــ يمكن أن يدله على هذه الأمور ، كما سبق وأن بينا فى الفصل الثانى .

ويجد الإنسان وينشط فى البحث عن الله ، وفى البحث عن دين يتدين به ، بديهى عدا الأديان التي يدعي أهلها بأنها قادمة من السماء ، وهذا هو حال تجربته معها . أو تخصيصا ، هذا هو حال تجربته مع **الديانتين (غير السماويتين) اليهودية والمسيحية ، وعدم صلاحيتهما فى أن يكونا مصدرا للدين والتدين . فهى تجربة فريدة تتحدث عن نفسها بأنها خير شاهد على فشل الفكر غير السماوى ، كما جاءت به تلك الديانتين ..!!**

وهكذا لم يبق للإنسان ــ المفكر ــ إلا ذاته ، ولم يبق له سوى الإعتماد إلا على نفسه ، وذلك فى محاوله منه للتعرف على الله .. ولكن من أين يبدأ ؟ .. وإلى أين يتجه ؟ ويذهب الإنسان إلى **المذاهب الوضعية أو الفلسفية** ، أو بمعنى آخر ، يتجه إليها لعله يجد لديها الحل ، **أو يجد فيها الملاذ والسكن ..!!** ويقف الإنسان من هذه المذاهب الوضعية ، نفس موقف إبراهيم ، قبل بعثته ، من الكوكب .. ومن القمر .. ومن الشمس . ويشير الإنسان إلى أحد المذاهب الوضعية أو الفلسفية .. ويقول هذا ربى .. ثم يتضح له خطأ ما يقول .. وخطأ ما يعتقد ..!! فيتركه (لأن المذهب أفل) ..!! ليذهب إلى مذهب آخر ويقول .. هذا ربى .. هذا أفضل .. ثم يتضح له خطأ ما يقول .. وخطأ ما يعتقد ..!! فيتركه إلى مذهب آخر ..!! وهكذا .. ويتكرر الإعتقاد .. وتتكرر الأخطاء .. وبغير نهاية ..!! ولم يتنبه خلاصة مفكرى الإنسانية ، إلى ما تنبه إليه إبراهيم (عليه السلام) قبل بعثته ، وهو : " **أنه لا سبيل إلى معرفة الله إلا بالله** " .. ولهذا نجد إبراهيم (عليه السلام) يقول فى نفس الآيات السابقة :

﴿ ... لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) ﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ٧٧)

إذن فالمعرفة الإلهية لن تتأتى إلا بالإخبار " الإلهي " عن نفسه ، وهى معرفة لا تنتج عن فكر تأملى أو تجربة معملية يقوم بها الإنسان . بل هى معرفة إخبارية ــ محضة ــ يتحدث فيها " الله " عن نفسه ، ويقدم فيها " الله " نفسه للبشرية ، لتعريفهم به ، وبكمالاته الإلهية .

إن قمة الإدراكات البشرية ، متمثلة فى فكر الأنبياء والرسل قبل بعثتهم ، هو مجرد إدراك أن الله موجود وإنه واحد فحسب ، ومن كمالاته ألا ينبغى له أن يغيب عن مخلوقاته ، بل يجب أن يكون فى حضور دائم ومستمر معهم . كما أدرك الأنبياء ــ قبل بعثتهم ــ أن معرفة الله لن تتأتى ، ولن تتم إلا بإخبار الله (ﷻ) عن ذاته وعن صفاته . وهذه هى غاية إدراكات الإنسان الفطرية ، **والمتمثله فى نقاء فكر الإنبياء وصفاء فطرتهم** [٣٠] .

وليقف الإنسان ذلك العاجز ، **إن لم يدرك هذا** ، حائرا فى هذا الوجود .. ليترنم بصوته النابع من أعماقة .. ليعبر بكل كلمة يتغنى بها ــ بدون أن يدرى ــ عن ندائه المتواصل على الله .. ويعبر بكل لحن يشدو به ــ بدون أن يدرى ــ عن بحثه الدائب والمتصل عن الله .. وليردد ذلك الفضاء اللامتناهى .. صدح هذا الإنسان الحائر ، وليحكي الوجود .. قصة هذا الضياع .. ضياع ذلك الإنسان الحائر الذى ينادى فى كل لحظة .. وفى كل حركة .. وفى كل سكنه .. بدون أن يدرى .. على الله .. وهو ــ فى نفس الوقت ــ يصم أذنية حتى لا يسمع استجابة الله له ..!! بل ويغمض عينيه .. حتى لا يرى تجلياته عليه ..!!!

ويتجلى " الله " هنا ... ويتجلى " الله " هناك ... ولتعيد دورة الحياة (The circle of life) نفسها .. هكذا .. وبغير نهاية ..!!

وليتكرر الإنسان .. وليكرر انسان بداية القرن الواحد والعشرين ، إنسان نوح (عليه السلام) منذ آلاف السنين ..!! عندما يشكى ــ نوح ــ حاله وحال قومه إلى الله (ﷻ) على الرغم من كثرة دعاءه لهم .. ولكن بلا طائل . فيخبرنا المولى عز وجل بقول نوح ، فى قوله تعالى :

---

[٣٠] وهذه هى الفطرة التى نولد عليها ، والتى يمكن أن تسمى بلغة الكمبيوتر (The Default) ، أى مالم يذكر غير ذلك ، كما سبق أن بينا فى الفصل الثانى .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ﴾

(القرآن المجيد : نوح {٧١} : ٥ - ٧)

[فرارا : تباعدا ونفارا عن الإيمان / استغشوا ثيابهم : بالغوا فى التغطى بها كراهة لنوح وحتى لا يروه]

ويستغشى إنسان بداية القرن الواحد والعشرين بثيابه (ليغطى بها وجهه) ــ كقوم نوح تماما منذ آلاف السنين ــ حتى لا يرى الدين الحق . ويضع إنسان بداية القرن الواحد والعشرون ، أصابعه فى آذانه ــ كقوم نوح تماما منذ آلاف السنين ــ حتى لا يسمع ما يجىء به الدين الحق من علم . بل ويستكبر ويصر إنسان بداية القرن الواحد والعشرون ، على كفره إصرارا ..

وتجرى سورة نوح بعد ذلك ، وتتوالى فى وصف السنن الكونية بإحكام بالغ ، لتنبيه قوم نوح ، وتنبيه إنسان بداية القرن الواحد والعشرين ، إلى وجود " الله " ، خالق كل شىء سبحانه وتعالى ، حتى نأتى إلى قوله تعالى :

﴿ مَّالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) .. .. ﴾ [٣١]

---

٣١ لعمرى .. أقف والعجز يغلفنى .. ولا أدرى ماذا أقول عن تفسير هذه الآيات ، وحول هذا الإحكام المذهل الوارد فيها .. أأدرك مسيحيوا الخروف .. قوله تعالى : مالكم لا ترجون لله وقارا ..؟! أأدرك محدودى فكر النظرية الداروينية .. قوله تعالى : وقد خلقكم الله أطوارا (أنظر الملحق الرابع) ..؟! ولم يدرك علماء الكونيات حتى الآن ، ولن ندرك نحن ، ولن ندرك إلا به (إلا بالله) ... قوله تعالى : .. سبع سماوات طباقا .. ولم ندرك ولن ندرك إلا به .. قوله تعالى : وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا .. ولم ندرك ، ولن ندرك إلا به .. قوله تعالى : (.. فيهن ..) ، ولقد أدركنا أخيرا (به) .. معنى القمر نورا .. والشمس سراجا .. والنور فى القرآن المجيد هو الضوء المنعكس من الأجسام المظلمة ، أما السراج .. فهو الجسم المشع بذاته .. أهناك إحكام أبعد من هذا ..؟! أم أن هناك إحكاما أبعد من هذا .. أم إنه القرآن المجيد .. وفعلا هو القرآن المجيد ..

﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩) ﴾

(القرآن المجيد : الإسراء {١٧} : ١٠٥ - ١٠٩)

(القرآن المجيد : نوح {٧١} : ١٣ – ١٦)

ومع هذا ؛ لم يكف قوم نوح عن عبادة الأصنام ، وعبادة الأوثان ، فماذا كانت النتيجة ..

﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) ﴾

(القرآن المجيد : نوح {٧١} : ٢٥)

أى بخطيئاتهم أغرقوا ، وليس هذا فحسب .. بل أدخلوا النار أيضا جزاءا وفاقا على إهدارهم عقلهم إلى هذا الحد المتردي ..!! وبديهى أن هذا ليس فعلا جزافيا من أفعال الرب ، كما يقول آريك فروم ، بناء على وصف العهد القديم لهذه القصة (أنظر كذلك الفصل السابق) [٣٢] ، بل هى قوانين ميتافيزيقية لم يحققها الإنسان ، أو هى عدالة إلهية لإنسان لم يحقق الغايات التى خلق من أجلها ، وأقر هو (أى الإنسان) لقبوله لهذا الخلق ، وعلى أساس قبوله لهذه الغايات . وهكذا يدخل الإنسان نارا أرادها لنفسه ، وبكامل اختياره ..!!

ويردد الله قوله تعالى للإنسان لعله يتذكر أو يخشى ..

﴿ ... وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾

(القرآن المجيد : النحل {١٦} : ١١٨)

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) ﴾

(القرآن المجيد : الزخرف {٤٣} : ٧٦)

﴿ ... وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) ﴾

(القرآن المجيد : النحل {١٦} : ٣٣)

وتنتهى قصة الإنسان .. وتنتهى حياته .. ليقف وجها لوجه مع الحقيقة المطلقة .. ليقول له الله تعالى فى محكم تنزيله :

---

[٣٢] " الدين والتحليل النفسى " ، آريك فروم ، ترجمة فؤاد كامل . دار غريب للطباعة . ص : ٤٤ .

﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾

(القرآن المجيد : الإسراء {١٧} : ١٣ - ١٤)

[ألزمناه طائره : ما قضى له ــ في العلم الإلهي السرمدي ــ أنه عامله وما هو صائر إليه]

وأرجو أن يتنبه الإنسان إلى قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ . وهكذا لم يحقق الإنسان الغايات من خلقه ، وهكذا لم يحقق الإنسان الغاية من استخلافه على الأرض .. وعبادة الله (ﷻ) .. ولتعيد دورة الحياة (The circle of life) نفسها .. وبغير نهاية ..!!

وفي الحقيقة ، إن المتتبع للفكر الفلسفي يشعر بالرثاء علي الإنسان .. وعلي المأزق الفكري الذي أوقعته فيه الديانتين اليهودية والمسيحية . **فقد أوقعته هاتين الديانتين ــ وهو لا يدري ــ في أكبر مأزق فكري على مدار تاريخه وحضاراته** . وقد انعكس آثار هذا المأزق الفكري ، وإن لم يكن في هذا أدنى مبالغة ، على فكر الفلاسفة والمفكرين الغربيين ، حتى أصبح الآن ، كما كان من قبل ، يدور حول كيفية الجمع أو التوفيق بين فطرة ناصعة مدركة لوجود إلهي متعال ذي صفات كمالات مطلقة ، وبين دين هابط دون مستوى الحضيض ، يقول بوجود إله وثني وخرافي .. قبل بأن يضرب بكل نعال الأرض من الإنسان مخلوقه .. تحت دعوى محبته للإنسان ..!! وهكذا أنتجت التجربة الدينية **اليهودية/المسيحية : إما إنسانا** يحاول الجمع بين المتناقضات ، لهذا يتهمه علماء النفس بالمرض ــ النفسي ــ عندما يجدوه يجد في البحث عن المبررات الفاقدة للعقل والمنطق معا حتى يمكنه الاحتفاظ بالدين بشكله الراهن ؛ **وإما إنسانا** يحترم عقله ، ويرفض هذا الفكر الديني والإلهي الوثني برمته ..!! ثم يذهب يتحرى وجود الحقيقة في مكان آخر ، في شكل فلسفة ما .. أو مذهب ما ..!! **عدا البحث عن الله بشعور مخلص في دين حق ، بعد أن كفر بدينه هو ..!!**

* * * * * * * * * * * * * *

٣. الفلسفة [٣٣] منذ نشأتها وحتى الفلسفات المعاصرة ..

- **ولماذا الفلسفة ؟**

في الواقع ؛ أن نظرية المعرفة (Epistomology) ، ونظرية الوجود (Ontology) ، ونظرية القيم (Axiology) [٣٤] ، هي من موضوعات الدين الأساسية ، وهي في نفس الوقت من صميم علم الفلسفة ، فليست هناك ثمة علوم أخرى يمكن أن تقوم بالرد على مثل هذه الأسئلة ، إلا الفلسفة .

- **ولماذا الفلسفة منذ نشأتها وحتى الفلسفة المعاصرة ؟**

ربما كان هذا أساسيا ولازما ، حتى نضمن عدم سقوط أو تسرب أي فكر من بين أيدينا يمكن أن يفيد في بحثنا هذا عن قضية الوجود والمصير ، من جانب ؛ وحتى لا يدعي أحد بأن هناك أنظمة فلسفية (أي وضعية) يمكن أن تقودنا للحقيقة .. أي حقيقة .. من جانب آخر..!! ولم نتناولها بالبحث في هذا الكتاب ..!!

فالهدف من هذا العرض ، هو الإجابة على السؤال الذي يقول : **وماذا قدم خلاصة المفكرين ــ من علماء وفلاسفة ــ للبشرية من فكر يمكن أن يعتمد عليه في تحديد هوية الإنسان ووجودة ، وتحديد طبيعة المصير الذي يمكن أن ينتهي إليه الإنسان . وكذا تحديد هوية خالق هذا الوجود ــ سبحانه وتعالى ــ وصفاته ؟ وهل يوجد نظام فلسفي يصلح بأن يحل مكان الدين .. ويتدين به الإنسان ..؟!**

وبديهي لكي نقوم بالإجابة على مثل هذا السؤال ، لابد لنا وأن نعرض لقصة الإنسان مع الفلسفة ، وماذا قدمت له الفلسفة من فكر يمكن أن يعول عليه في الرد على مثل هذه التساؤلات السابقة . لذا كان يلزم أن نبدأ بالفلسفة منذ بداية الحضارة الإنسانية وننتهي بالفلسفات المعاصرة أي فلسفات القرن العشرين (والواحد والعشرين) . وبديهي إن مثل هذا العمل ، هو عمل

---

[٣٣] تتكون كلمة (Philosophy) من مقطعين يونانيين (Philia) وتعني : حب ؛ وكلمة (Sophia) وتعني : حكمة . وبهذا يكون معنى كلمة فلسفة ، هي " حب الحكمة : Love of Wisdom " (أنظر الملحق الرابع من هذا الكتاب لمزيد من التفاصيل) .

[٣٤] أنظر الملحق السادس من هذا الكتاب للتفاصيل .

موسوعى يحتاج لعدة مجلدات ضخمة لبيانه وتحليله . وبديهى لن نقوم بمثل هذا العمل ، وإلا تهنا فى التفاصيل وضاع من بين أيدينا الهدف المنشود . ولكن ما يعنينا الآن ، هو الرؤية الكلية أو الإجمالية لما أسفرت عنه الفلسفات من أفكار كلية تخدم أغراض البحث هنا ، من حيث وجود الإنسان ومصيره ، وكذا الغايات من وجوده ، وطبيعة الخالق على نحو مجمل . ولحسن الحظ إن مثل هذا العمل يمكن تقديمه فى صفحات قليلة ، كما نعرضه هنا ، مبتدئين فى ذلك بالقصة من بدايتها التاريخية .. والتي تتلخص في الفلسفات التالية :

١. " العصر الشرقي القديم ؛ ما قبل الفلسفة اليونانية القديمة : Before the Ancient Greek Philosophy " (وهو عصر بدأ منذ بضعة آلاف من السنين وحتى القرن السابع قبل الميلاد) .

٢. " عصر الفلسفة اليونانية القديمة : Ancient Greek Philosophy " . (وهو عصر بدأ من حوالي سنة ٦٠٠ قبل الميلاد إلى حوالي سنة ٤٠٠ بعد الميلاد) .

٣. " فلسفة العصور الوسطى : Medieval Philosophy " (بدأ من حوالي القرن الخامس الميلادي إلى حوالي منتصف القرن الخامس عشر الميلادي) .

٤. " فلسفة عصر النهضة : Renaissance Philosophy " (بدأ من القرن الرابع عشر الميلادي ، وحتى القرن السادس عشر) .

٥. " الفلسفة الحديثة : Modern Philosophy " (بدأ من منتصف القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا ، وحتى نهاية القرن التاسع عشر) .

٦. ثم أخيرا " الفلسفات المعاصرة : Contemporary Philosophy " (والتي بدأت من نهاية القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين وحتى الوقت الحاضر) .

والشكل التالي يبين عصور الفلسفة البشرية وتفصيلاتها منذ فجر التاريخ وحتى الفلسفات المعاصرة على نحو إجمالي .. حتى يسهل على القارىء تتبع العصور الفلسفية .. ومعرفة موقع ومكان الفلسفات المختلفة في التاريخ بنظرة عابرة إلى الشكل .

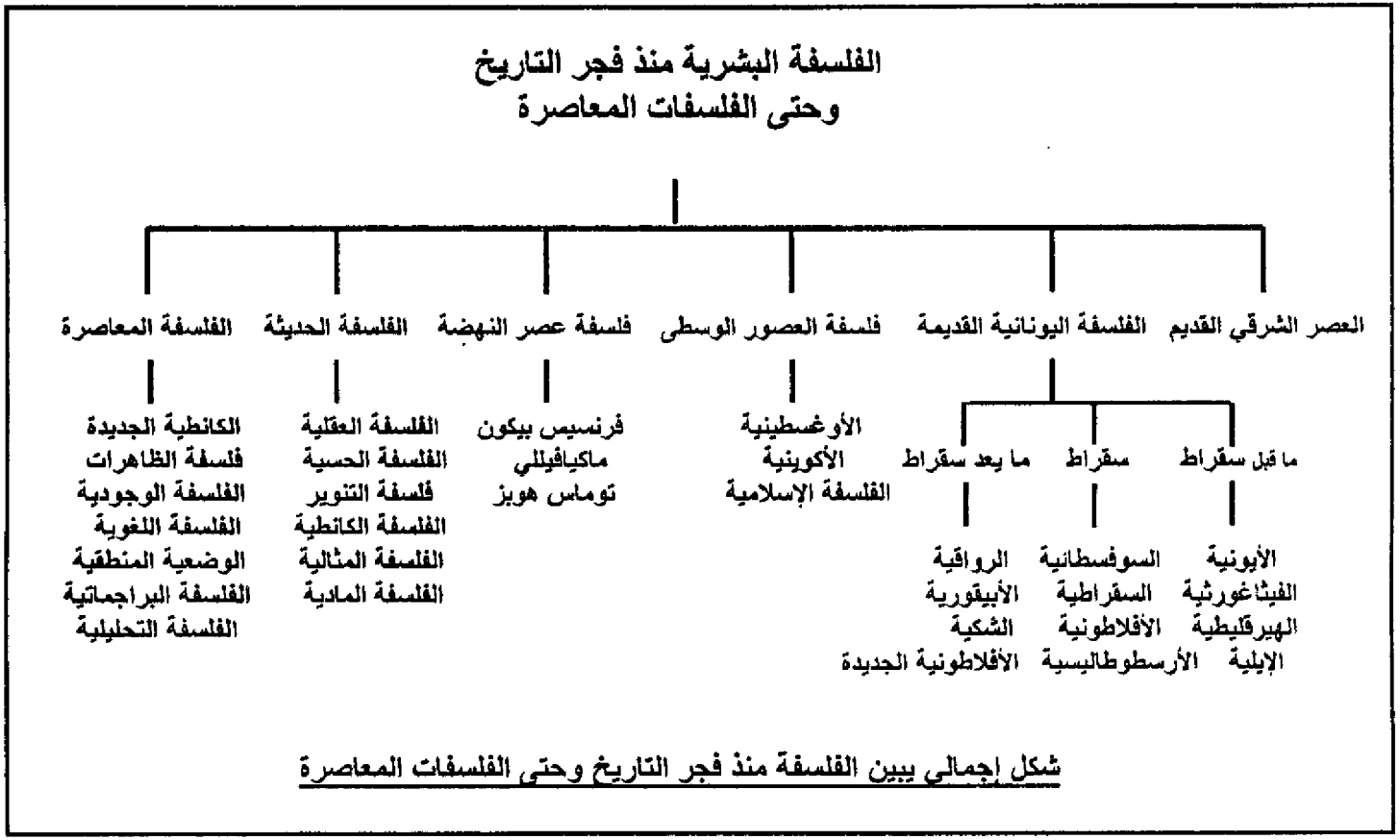

شكل إجمالي يبين الفلسفة منذ فجر التاريخ وحتى الفلسفات المعاصرة

وفي هذه الفقرة سوف أكتفى بأن أعطي المعالم العامة لكل مرحلة من مراحل الفكر الفلسفى ، على طول تاريخ الحضارة الإنسانية [٣٥] ، مع الإشارة فى نفس الوقت إلى أهم الفلاسفة وفلسفتهم فى كل مرحلة . وهذا ما فيه الكفاية لبيان ما قدمته الفلسفة للإنسان وللدين .

والآن إلى رحلة الفلسفة منذ بدء الحضارة البشرية وحتى الفلسفات المعاصرة ، لنرى ماذا قدمت للإنسان .. من فكر حول الوجود ، والمصير ، والغايات من الخلق ، وكيفية رؤيتها للإله الخالق .. سبحانه وتعالى عما يصفون ..

٣ . . . العصر الشرقي القديم .. عصر ما قبل الفلسفة اليونانية القديمة :

Before the Ancient Greek Philosophy

كان يلزم التنويه هنا إلى أنه قبل ظهور الفلسفة اليونانية القديمة ، كان هناك **العصر الشرقى القديم** ، **والذى يبدأ منذ بضعة آلاف من السنين قبل ميلاد السيد المسيح ، ويستمر هذا العصر حتى حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد** . وتمثل تلك الحقبة الأولى السحيقة فجر الضمير الإنسانى ، وبداية ظهور الفكر الأخلاقى والحكمة الدينية فى الحضارات القديمة التى كانت فى مصر وبابل وآشور . كـما كانت فى فارس والهند والصين . وكان من أبرز حكماء ذلك العصر الشرقى القديم : " **بوذا** " [٣٦] و " **كونفوشيوس** " [٣٧] و " **زرادشت** " [٣٨] إلى جانب بعض ملوك حضارة مصر القديمة مثل " **إخناتون** " الذي نادى بالتوحيد .

---

[٣٥] **هناك أسلوب آخر فى عرض الفلسفة ، غير هذا العرض التاريخى ، وفيه يتم عرض الفلسفة من خلال الميادين الأساسية لها وهى : مبحث الوجود (Ontology) ، ومبحث المعرفة (Epistomology) ، ومبحث القيم (Axiology) ، غير أن ما اتبع هنا هو العرض التاريخى حتى أتجنب تكرار أسماء الفلاسفة من جانب ، كما يفضل إعطاء فكر متكامل عن الفيلسوف أيضا فى هذه المباحث وليس فكرا جزئيا عن كل حالة ، من جانب آخر . (أنظر الملحق السادس من هذا الكتاب) .**

[٣٦] **جوتاما بوذا (٥٦٣ – ٤٨٣ ق. م.) مؤسس الديانة البوذية ، وقد سبق الكلام عنه فى الفصل الثانى .**

[٣٧] **كونفوشيوس (٥٥١ – ٤٧٩ ق. م.) فيلسوف صينى أقام مذهب يضم كل الأفكار الصينية عن السلوك الإجتماعى والأخلاقى ، وعلى أن تكون هناك حكومة تخدم الشعب تطبيقا لمثل أخلاقية عليا . وقد ظلت هذه الأفكار تتحكم فى سلوك الناس أكثر من ألف سنة . وكثيرا ما يوصف كونفوشيوس بأنه أحد مؤسسى الديانات الكبرى (الديانة الكونفوشيوسية) ، ولكن هذا التعبير غير دقيق فمذهبه غير دينى . فهو لا يتحدث عن الله أو عن السماوات ، وإنما مذهبه : هو طريقة فى الحياة الخاصة والسلوك الإجتماعى والسياسى . ومذهبه يقوم على الحب ؛ حب الناس وحسن معاملتهم والرقة فى الحديث والأدب فى الخطاب ، ونظافة اليد واللسان . وكذا إحترام الأكبر سنا والأكبر مقاما ، وتقديس الأسرة . ومن الحكم المأثورة عن كونفوشيوس " أحب لغيرك ما تحبه لنفسك " .**

٣. ١. الفلسفة اليونانية القديمة (Ancient Greek Philosophy)

ثم يأتى بعد هذا العصر الشرقى القديم الفلسفة اليونانية القديمة ، وهى تمتد حـوالى عشرة قرون . تبدأ من حوالى منتصف القرن السابع قبل الميلاد (حوالى سنة ٦٠٠ ق . م) ، وتنتهى عند أوائل القرن الخامس الميلادى (حوالى سنة ٤٠٠ بعد الميلاد) . وقد بلغت الفلسفة اليونانية قمة نضجها فى ذلك العصر على أيدى **سقراط وأفلاطون وأرسطو** . ثم بدأت هذه الفلسفة بالتدهور تدريجيا مع نهاية هذا العصر ، حتى إنطفأت شعلة الحضارة اليونانية ، مع بداية ظهور فلسفة العصور الوسطى (**Midieval Philosophy**) . وتتسم الفلسفة اليونانية القديمة ، بثلاث مراحل أساسية هى : **مرحلة ما قبل سقراط** ، **ومرحلة سقراط** ، **ومرحلة ما بعد سقراط** . وأهم إتجاهاتها الفكرية سوف نعرضها فيما يلى .

٣. ١. ١. المرحلة الأولى : مرحلة ما قبل سقراط (Pre-Socratic Era)

وتشمل أربع فلسفات هى : الفلسفة الأيونية ، والفلسفة الفيثاغورسية ، والفلسفة الهيرقليطية ، ثم الفلسفة الإيلية ، وأهم إتجاهاتها الفكرية هى كالنحو التالى :

---

[٣٨] زرادشت إيرانى المولد (٦٢٨ - ٥٥١ ق. م.) مؤسس " الديانة الزرادشتية : **Zoroastrianism** " ؛ التى عاشت (٢٥) قرنا ، ولا يزال لها أتباع حتى اليوم غير أنهم قليلون . و الديانة الزرادشتية تؤمن بضرورة الخير وإتباعه . ويرفض زرادشت الزهد والإمتناع عن الزواج . والزرادشتيون يؤمنون ببعض الطقوس مثل تقديس النار والصلاة حولها وأمامها ، والإحتفاظ بها مشتعلة دائما فى المعابد . ومن أهم تقاليدهم التخلص من الميت : لا بدفنه أو بإحراقه ، ولكن بوضعه فى مكان مرتفع لتأكله الطيور الجارحة ، وهذه الطيور تجرد الجثث من اللحم فى ساعات قليلة . فهم يرون أن إحراق الجثة أو دفنها يدنس العناصر المادية ، لذا فلابد من أن تعرض الجثث فوق " أبراج الصمت " لتلتهمها الطيور الجارحة .

وتقول الديانة الزرادشتية بوجود إلهين أحدهما هو " أهورا مزدا : **Ahura Mazda** " ويمثل الخير ؛ والآخر هو " أهريمان : **Ahriman** " ويمثل الشر ؛ وبأن الصراع بينهما لا ينقطع . كما تقول بأن على أتباع أهورا مزدا (إله الخير) أن يلتزموا نظاما أخلاقيا صارما لكى يصبحوا طاهرى الفكر والقول والعمل . وقد انتشرت الزرادشتية فى إيران وأصبحت ديانتها الرسمية فى عهد الساسانيين . ولكن مزدك الزعيم الدينى الفارسى المتوفى عام ٥٢٨ للميلاد سرعان ما قاد حركة اشتراكية مناهضة لهذه الديانة . واضمحلت الزرادشتية بعد ظهور الإسلام وتلاشت . وهى غير معروفة الآن إلا فى مواطن معزولة من إيران ، وفى بعض الأنحاء الهندية حيث تعرف باسم " البارسية : **Parsiism** " ، حيث يفوق عدد أتباعها (حوالى مئة وعشرين ألفا) ، وعدد الزرادشتيين فى إيران الذى يصل إلى حوالى عشرين ألفا لا غير .

[١] الفلسفة الأيونية (Ionian Philosophy) :

يعتبر طاليس : **Thales** (٦٢٤ – ٥٤٦ ق . م) هو مؤسس الفلسفة الأيونية (نسبة إلى أيونيا [٣٩]) . **ويسود الاعتقاد بأن طاليس هو أول فلاسفة اليونان** ، كما تعتبر فلسفته علمية ، لأنه كان يبحث عن قانون عام يمكن أن تنسب إليه مفردات هذا الوجود . وقد قال بأن الماء هو أصل الأشياء ، وهو العنصر الأساسى للحياة .

ثم يأتى الفيلسوف الثانى فى هذه المدرسة ، وهو **أنكسيمندر : Anaximander** (٦١١ ــ ٥٤٧ ق . م) ، وقال بأن هناك عنصر آخر أكثر أولوية من الماء ، وأطلق عليه إسم " **اللامتناهى واللامحدود : Aperion** " ، وهو الذى تتكون منه السماوات والعالم . وهذا العنصر اللامتناهى ، مكون من الأضداد التى كانت متحدة ثم إنفصلت . ويعتبر تفكيره هذا بداية للتفكير الميتافيزيقى . وقد قال **أنكسيمندر** كذلك بأن الأرض لا تقوم على قاعدة ــ كما كان يعتقد طاليس ــ بل هى معلقة وسط السماء وثابته فى مكانها ، وعلى مسافة متساوية من الأجرام السماوية .

ثم نأتى بعد ذلك إلى **أنكسيمينس : Anaximenes** (٥٨٥ – ٥٢٨ ق . م) ، الفيلسوف الثالث فى هذه المدرسة ، الذى جعل من الهواء المادة الأولى كمصدر للأشياء ، بدلا من الماء الذى قال به طاليس . وقال بأن الهواء جاءت منه الإلهيات .

[٢] الفلسفة الفيثاغورسية (Pythagorian Philosophy) :

ومؤسسها فيثاغورس : **Pythagoras** (٥٧٢ – ٤٩٧ ق . م) ، ويعتقد الباحثون بأنه أول من جاء بلفظ " **فلسفة** " . وأسس فيثاغورس مدرسته فى كروتون فى جنوب ايطاليا ، وكانت ذات أهداف دينية وعلمية . وقال **فيثاغورس** بأن الروح الإلهية هى القوة الفكرية لمعرفة الحقيقة الثابتة . فالروح هى الألهة والجسم سجين لها . وقد وجد الفيثاغورسيون أن تفسير أصل الموجودات على أساس ردها إلى مادة واحدة غير مقنع ، لأن هذا يوحى بأنه لن يمكن التمييز بين هذه المفردات إذا كانت كلها من مادة واحدة . وقد وحد الفيثاغورسيين بين

---

[٣٩] أيونيا (Ionia) : هى المنطقة الحضارية القديمة التى كانت تقع غرب آسيا الصغرى ، والتى كانت تمتد على طول شاطىء بحر إيجة (the Aegean Coast) . وبحر إيجه هو الذراع الشمالى من البحر الأبيض المتوسط الذى يقع بين اليونان وتركيا . وكانت هذه الحضارة لها لغة خاصة بها هى اللغة الأيونية ، والتى تنسب إليها الفلسفة .

عالم الموجودات وعالم الأعداد . فالأعداد بالنسبة لهم تصور وليست مقدار . وقد رمزوا للعقل بالواحد ، والظن باثنين ، لأنه تردد بين طرفين ، ورمزوا للوقت بسبعة لأنه يقابل أيام الأسبوع .. وهكذا .

وقد تطورت نظرية العدد لدى الفيثاغورسيون لتصبح أساس الموجودات ، على أساس أن النقاط صدرت من الأعداد ، ومن النقاط تكونت الخطوط ، ومن الخطوط تكونت المسطحات ، ومن المسطحات تكونت المجسمات ، ومن المجسمات تكونت الأجسام المحسوسة وعناصرها الأربعة هى : **النار ، والهواء ، والأرض ، والماء** . وقال الفيثاغورسيون أيضا بأن **نظرية الأعداد تقود إلى أن الشمس والقمر والكواكب الأخرى هى آلهة** (لاحظ هنا أسطورية الفكر العلمى) ، وما تبعثة من حرارة هو علة الحياة . والبشر يقتربون من الآلهة لأنهم يشاركون فى الحرارة ، وبذلك ترعاهم الآلهة ، وهكذا يسير العالم لقدره .

[٣] الفلسفة الهيرقليطية (Heraclitean Philosophy) :

ومؤسسها **هيرقليطس : Heraclitus** ، وهو فيلسوف أيونى (٥٣٦ – ٤٧٠ ق . م) ، وأهم ما يميز فلسفته هو قبول " **التغير كقانون لجميع الموجودات** " ، ولولا التغير لم يكن هناك شيئا . والتغير يتم وفق قانون عام هو " **اللوجوس أو اللوغوس : Logos** [٤٠] " **ويعنى الجوهر الإلهى والعقل الإلهى** . ويتم التغيير حين يصير الشيء إلى ضده ، ولذلك تعتبر الأضداد متحدة مع بعضها . ونظريته بالتغيير تعنى صراعا بين الأضداد ؛ مثل الخير والشر ، والصحة والمرض ، والعمل والراحة ، والبارد والحار ، والجاف والرطب .. ولا يوجد واحد بدون ضده . فلولا الشر ما كان الخير ، ولولا العمل ما نعمنا بالراحة .. وهكذا .

وقد أرجع هيرقليطس جميع الأشياء إلى النار ، ويرى أنها المبدأ الأول التى يصدر عنها كل الأشياء . وليس النار هنا هى النار المحسوسة ، بل هى **النار الإلهية الأزلية** . فهى حياة العالم وقانونه هو " **اللوغوس** " . وعندما يعترى النار الإلهية الوهن تصير النار المحسوسة ، ويتكاثف بعض هذه النار فتصير بحرا ، ويتكاثف بعض البحر فيصير أرضا ، وترتفع الأبخرة من الأرض والبحر فتصير سحبا ، فتلتهب السحب وينقدح منها البرق وتعود نارا ، أو تنطفىء السحب فتكون العاصفة وتعود النار إلى البحر ، وتتكرر الدورة (لاحظ هنا أيضا أسطورية

---

[٤٠] تعنى كلمة " لوجوس " ــ أيضا ــ فى الفكر المسيحى : السيد " المسيح عيسى بن مريم " ؛ أو " كلمة الله " ؛ أو " الإله المتجسد فى الصورة البشرية " .

الفكر العلمى) . **والنفس البشرية متصلة بهذه النار الإلهية** ، وهى عرضة للتحول نحو الجفاف ، أو نحو الرطوبة والماء . وفى الحالة الأولى يزداد نصيب النفس من العقل والصلاح ، وفى الحالة الثانية ــ الجفاف ــ يدرك النفس الفساد .

[٤] الفلسفة الإيلية (Eleatic Philosophy) :

وأهم فلاسفتها ، **بارمنيدس** : **Parmenides** (٥١٥ - ٤٤٠ ق . م) ، وقد تتلمذ على أيدى **إكسينوفون** : **Xenophone** (٥٧٠ - ٤٨٠ ق . م) الذى قال بوحدة الوجود ، ويعنى أن الوجود واحد ، هو أرفع الموجودات السماوية والأرضية ، وأنه ليس مركبا على هيئتنا أو مفكرا مثل تفكيرنا ، وهو لا متحرك بل ثابت يحرك الكل بعقله . وبذلك اختلف عن سابقيه من الفلاسفه الذين افترضوا موجودا واحدا كالماء أو الهواء أو النار ثم استخرجوا منه كثرة الأشياء بالحركة والتغير ، فوصفت فلسفتهم بتفكيرها المـــادى ، بينما وصفت فلسفة إكسينوفون بتفكيرها الميتافيزيقى (أي العقلي) .

وقد قال **بارمنيدس** بنوعى المعرفة العقلية والحسية . والمعرفة العقلية لديه تتميز بأنها ثابته وكلية ، بينما المعرفة الحسية تتميز بإتجاهها العلمي . وتعتبر أفكار بارمنيدس نقطة البداية التى نشأ منها تفكير أفلاطون المثالى ، وتفكير أرسطو المنطقى ، وتطور فيما بعد إلى الفكر الأوربى بنوعيه ؛ التفكير الميتافيزيقى (العقلي) والتفكير العلمى (التجريبي) [٤١] .

٣. ١. ٢. المرحلة الثانية : مرحلة سقراط (Socratic Era)

وتشمل هذه المرحلة أربع فلسفات هى : الفلسفة السوفسطائية ، والفلسفة السقراطية ، والفلسفة الأفلاطونية ، ثم أخيرا الفلسفة الأرسطوطاليسية ، وأهم اتجاهتها الفكرية تأتي على النحو التالى :

[١] الفلسفة السوفسطائية (Sophism) :

وأهم فلاسفتها **بروتاغورس** : **Protagoras** (٤٨٠ - ٤١٠ ق . م) ، **وجورجياس** : **Gorgias** (٤٨٠ - ٣٧٥) . وترجع الفلسفة السوفسطائية إلى كلمة سوفسطائى (**Sophist**)

---

[٤١] كما سبق وأن ذكرت ، فإن التفكير الميتافيزيقى : هو التفكير الذى يبدأ بالذات والتجربة العقلية من حدس (Intuition) وتأمل واعتماد على البديهيات . أما التفكير العلمى : فهو التفكير الذى يبدأ بالعالم الخارجى ، والتجربة الموضوعية من حسابات ومختبرات وإثباتات علمية .

، ومعناها " المعلم " أو " معلم الخطابة " بنوع خاص . حيث أخذ السوفسطائيين على عاتقهم تعليم الشباب أسلوب الخطابة ، وفن النجاح فى الحياة العملية وكيفية الوصول إلى المناصب وكسب الأصدقاء . وتتميز هذه الفلسفة السوفسطائية **بالشك المذهبى أو المطلق** [٤٢] ، الذى لا يعترف بوجود خطأ أو صواب ، أو حق أو باطل . ولهذا أخذ السوفسطائيين التلاعب بالألفاظ اللغوية والمغالطات المنطقية ، التى تجعل من الحق باطلا ومن الباطل حقا . وأصبحت التعاليم السوفسطائية موضع نقد من الفلاسفة أمثال سقراط وإكسينوفون (أو زينوفون) وأفلاطون ، لغياب المعايير لديهم ، كما وأن المعرفة أصبحت لديهم غاية منفعية فحسب .

وقد أتهم **بروتاغورس** ــ أهم فلاسفتها ــ بالإلحاد لأنه قال : **لا أستطيع أن أعلم إن كانت الآلهة موجودة أم غير موجودة** ، لأن هناك أمورا كثيرة تحول بينى وبين هذه المعرفة وهذا العلم ، منها **غموض الموضوع** ، **وقصر العمر** . وقد أدين **بروتاغورس** لآرائه هذه وحكم عليه بالإعدام ، وفر هاربا غير أنه توفى غرقا أثناء فراره . وفى أسطورة منسوبه إليه يقول :

" أن الإلهين إبميثيوس (Epimetheus) وبروميثيوس (Prometheus) كانا قد كلفا بتوزيع المواهب والقدرات على المخلوقات . وفى عملية التوزيع وهب أبميثيوس الحيوانات مالها من قدرات لكى تساعدها على الحياة . وعندما جاء دور الإنسان لم يتبق له من المواهب شئ . فسرق له **بروميثيوس** النار وفنونها من الآلهة ووهبها له عطفا عليه [٤٣] . ورغم إن قوة

---

[٤٢] **هناك ثلاثة أنواع من الشك فى الفكر الفلسفى هى :**

(١) الشك المنهجى أو العلمى : وهو شك مؤقت ، يبدأ به الفيلسوف أو العالم ثم يتحول منه إلى اليقين بعد ذلك ، بعد أن يحلل القضية ويناقشها ، وينتهى من هذا التحليل والمناقشة إلى صدقها أو خطأها . وقد إتبع كل من سقراط وديكارت هذا الشك المنهجى للوصول منه إلى الحقيقة .
(٢) الشك الإنكارى : وفيه ينصب الشك ــ فقط ــ على المعتقدات التى يسلم بها الأفراد ، ويتضمن الإلحاد فى الدين .
(٣) الشك المذهبى أو المطلق : وفيه يعتنق الإنسان منهاج الشك فى كل شىء ، بمعنى أنه لا يوجد صواب أو خطأ فى ذاته ، فما يبدو لى صوابا قد يكون خطأ بالنسبة لشخص آخر أو العكس ، وكلانا على صواب . والشك المذهبى هو الشك الذى قال به السوفسطائيين .

[٤٣] **وتضيف الأسطورة بأن كبير الآلهة زيوس (Zeus) قد عاقبه على هذه السرقة بأن قيده بالسلاسل وأرسل إليه نسرا أو عقابا ينهش كبده ، ولكن كان هذا الكبد يتجدد على نحو موصول ، وأخيرا أنقذه هرقل من هذا البلاء .**

وزيوس هو كبير الآلهة فى الميثولوجيا اليونانية القديمة ، ويقابله جوبيتر فى الميثولوجيا الرومانية وكبير الآلهة فى الفكر الميثولوجى (أى الإسطورى) ليس هو " المحدث الأول أو الخالق الذى لا محدث قبله " ، بل هو الآخر مولود شأنه فى هذا شأن المخلوقات الأخرى . حيث تقول الأسطورة

النار قد ساعدته على الحياة والسيطرة على طبيعتها إلا إنها لم تخرجه من حياة الوحشية لافتقاره إلى معرفة الفضيلة والكرامة والعداله " .

وقد وضع الفيلسوف الثانى ــ فى هذه الفلسفة ــ " **جورجياس** " كتابا عن اللاوجود ، تميزت فيه فلسفته بثلاث قضايا أساسية هى :

أولا : بأنه لا يوجد شئ .
ثانيا : بأنه إذا كان هناك شئ فالإنسان قاصر عن إدراكه .
ثالثا : إنه بافتراض وجود شئ ، وأن الإنسان قد أدركه ، فإنه لن يستطيع أن يبلغه لغيره من الناس .

[٢] الفلسفة السقراطية (Socratic Philosophy)

ومؤسسها **سقراط : Socrates** (٤٧٠ - ٣٩٩ ق. م) . وهو يعتبر أهم فلاسفة اليونان ، وأكثرهم إبداعا وتأثيرا ، ولا يعتقد أن هناك من له أثر على الفكر الفلسفى مثل سقراط . وتتميز فلسفته بأنها ميتافيزيقية ، وهي الفلسفة التى تبدأ بـــالذات والتجربة العقـــلية والاعتماد على البديهيات . بمعنى أنه فى بحثه عن الحقيقة رفض التفسيرات المادية السببية واتجه نحو التفسيرات العقلية . ففى فلسفته نجد سيطرة العقل على الحس ، والنفس على الجسد . ونقد السوفسطائيين واتجاهاتهم العملية ، وكون لنفسه منهاجا فكريا لتفسير الحقيقة ؛ وهى تدور حول **حقيقة الإنسان والوصول إلى معرفته** . وقد تركزت فلسفة سقراط حول ماهية الإنسان وفضائله ، وتهذيب الذات وتحريرها من عبودية الشهوات ، وبذلك يمكن أن تتحقق سعادة الإنسان . ولهذا يعتبر سقراط ــ فى نظر كثير من مؤرخى الفلسفة ــ **مؤسس الفلسفة الأخلاقية** ، **أو علم الأخلاق** . وكان يعتقد بأن هناك شريعة أخلاقية أبدية لا يمكن أن تقوم على دين ضعيف

السابقة ، بأن " زيوس " ــ كبير الآلهة ــ كانت أمه " ريا " وأبوه " كرونوس " . وأن كرونوس أنجب من ريا ، قبل ولادة زيوس ، كلا من : هستيا ، وديمتر ، وحيرا ، وحادس ، وبوسيدون ، وأنه ابتلع كلا من هؤلاء عقب ولادتهم بعد أن وقع فى وهمه ، إثر تحذير جاءه ، أن أحد أولاده سوف يخرج على طاعته ويخلعه . فما كان من ريا إلا أن أخفت وليدها الجديد ــ زيوس ــ فى كهف بجزيرة كريت وقدمت إلى كرونوس بدلا منه قماطا يشتمل على حصاة ليبتلعه . وهكذا نجا زيوس من الهلاك ونشأ فى كهفه ذاك بعد أن عنيت بتربيته بعض الحوريات . حتى إذا بلغ أشده أكره أباه على تقيؤ أولاده ، وأعلن الحرب عليه وهزمه ، وبذلك أصبح كبير الآلهة . (وهنا نلاحظ أن الفكر الأسطورى لدى الإنسان لم يستطع أن ينفصل عن فكر الميلاد للمجيء لهذا الوجود حتى بالنسبة لكبير الآلهة . لذلك لم يستطع ــ الإنسان ــ تخيل كبير الإلهة هو الإله الأول أو الموجد الأول للآخرين حيث لا يوجد له موجد آخر) .

(أسطورى) كالدين الذى آمنت به أثينا فى ذلك الوقت . وكان يرى أن إدارة الدولة مسألة تحتاج إلى أفكار أعظم العقول وأحسنها ، إذ كيف يمكن أن إنقاذ مجتمع أو جعله قويا إلا إذا تولى أمر هذا المجتمع أحكم رجاله وأعقلهم .

وتعتبر السعادة فى نظر سقراط الغاية العليا أو الهدف النهائى للأخلاق . والسعادة ــ من وجهة نظره ــ تقوم على سيطرة العقل على دوافع الشهوة ، ونوازع الهوى ، ورد الإنسان إلى حياة الإعتدال .

ويقول **شيشرون** ، لقد أنزل سقراط الفلسفة من السماء إلى الأرض . **أى أنه حول التفكير من العالم وأصله إلى الإنسان وذاته** . ووجه الإنسان إلى معرفة الحكمة والفضيلة والخلق إستنادا إلى قوة العقل .

وكان سقراط يرى الإنسان عبارة عن روح وعقل يسيطر على الحس والتجربة . فالقوانين العادلة تصدر عن العقل ، وهى قوانين غير مكتوبة . وكان يعتقد أن الأطفال تولد بمعرفة متواحدة فى أرواحهم (أى معرفة فطرية) غير أنهم لا يستطيعون إظهارها دون مساعدة . ولهذا إتبع طريقة الحوار الجدلى (وتعرف أيضا بالطريقة السقراطية المنهجية ، أو نظرية الأنامنيسس : **The Theory of Anamnesis**) ، لمساعدة محدثيه وتلاميذه لإكتشاف المعرفة العقلية فى نفوسهم .

وقد اتبع سقراط **الشك المنهجى** [٤٤] للوصول إلى الحقائق ، وقد تضمن منهاجه **التهكم والتوليد** [٤٥] . وقد كرس سقراط فلسفته للبحث عن الخير والفضيلة ، وعرف الفضيلة بأنها

---

[٤٤] أنظر تذييل رقم ٥٦ السابق .

[٤٥] **التهكم : هو جانب سلبى فى الحوار ، بأن يتظاهر سقراط ــ أو المتحدث ــ بالجهل أمام محدثيه ويلقى عليهم أسئلة وكأنه يستفيد منهم ، ثم يستمر فى الأسئلة ويجعلهم يستنبطون من أقوالهم نتائج ــ مترتبة ــ لا يوافقون عليها ، وعندئذ يعترفون بالجهل .**

أما التوليد : فهو جانب إيجابى فى الحوار ، فهو محاولة إستخراج الحقائق والمعانى من نفس محدثة بالأسئلة والإعتراضات . وعندئذ يعتقد محدثة بأنه قد إكتشف الحقيقة بنفسه . ولذلك كان سقراط يقول أنه يحترف صناعة والدته (والتى كانت تعمل مولدة) إلا أنه كان يعتبر نفسه ، يولد الحقائق من محدثيه .

معرفة (Virtue is Knowledge) . وكان يؤكد على أن السعادة لا تكمن فى إشباع الرغبات ، وإنما فى القرب من الله (كما سبق وأن بين القرآن المجيد ذلك) . وقد أتهم [٤٦] سقراط بأنه يفسد الشباب ، ويعتقد بآلهة بدل الآلهه المعروفة ، كما آمن بأن الموت لن يقضى عليه تماما . وأعدم بإجباره على تناول السم . وقال وهو فى طريقه إلى الموت :

" أنا إلى الموت ، وأنتم لتستأنفوا الحياة الأفضل ، ولكن من منا لديه السعادة المقبلة ، فهذا أمر يبقى غير معروف لأي أحد غير الله " .

[٣] الفلسفة الأفلاطونية (Platonic Philosophy)

ومؤسسها أفلاطون : Plato (٤٢٧ ؟ - ٣٤٧ ق . م) أحد تلاميذ سقراط . وتعتبر الفلسفة الأفلاطونية تطلع إلى العالم الأفضل بنظرة روحية ، ولديها ثقة بمقدرة العقل الإنسانى للوصول إلى الحقيقة المطلقة (The Absolute Truth) . وقد ذهب أفلاطون إلى أن العالم الحقيقى ليس هو عالم المحسوسات أو عالم الإدراك الحسى ، إنما الحقيقة الواقعة فى ذاتها هى نظام فكرى فطرى كائن فى الإنسان . وقد تميزت المدرسة (أو الأكاديمية) الأفلاطونية بالتفكير الميتافيزيقى (أى العقلى) ، مع التركيز على الرياضيات والسياسة .

وقد رفض أفلاطون النظريات التى تقول بأن المعرفة هى معرفة الحواس . لأن معرفة الحواس هى معرفة ظنية وليست كاملة ، كما وأنها ليست معرفة حقيقية مطلقة . إنما المعرفة الحقيقية المطلقة يمكن أن نصل إليها من خلال التفكير الميتافيزيقى . أى أن العالم الحقيقى هو عالم الأفكار . وهذا هو الأساس الذى يقوم عليه " المذهب العقلى الميتافيزيقى " .

والنفس فى حقيقتها فكر ، والوجود الأرضى يفقدها صفاءها بسبب إتصالها بالجسم . وعلى هذا ؛ فإن واجب النفس يقتضيها أن تعمل جاهدة على التحرر من الحسيات حتى يعود إليها صفاؤها . وكلما إقتربت النفس من تحقيق هذا الهدف كلما كانت معرفتها للمبادىء الأولى أكثر وضوحا . وهذا التصور شبيه بتصور هيجل عن الحقيقة ذاتها . فالحقيقة عند هيجل فكرة تتطور بضرورة داخلية حتى تدرك بوعى ذاتى .

---

[٤٦] اتهمه ثلاثة أشخاص هم : أنيتوس (Anytos) وهو أحد السياسيين ، وليكون (Lycon) أحد الخطباء ، وملبتوس (Meletos) أحد الشعراء .

وقد تأثر أفلاطون بإعدام سقراط ، وإعتقد أن الديموقراطية هى سبب هذا . ولذلك شك فى صحة أوضاع مجتمعه ، ورسم لنا صورة للمجتمع المثالى كما يـــراه فى جمهوريته (**جمهورية أفلاطون**) وهى تختلف عن المجتمع القديم ، فى كثير من الجوانب .

ففى هذه **الجمهورية** ، تناول أفلاطون المجتمع كوحدة واحدة مبينا ما فيه من عيوب ، ثم وضع خطة شاملة لإصلاح الجوانب التعليمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ونقد الفن ودافع عن مكانة المرأة . كما طالب بأن يكون نظام الحكم فى جمهوريته ديكتاتوريا (أى السلطة فى يد الحاكم) . وكان يرى أن العدل هو تنسيق بين أفراد المجتمع ، أو هو إتفاق متبادل بين الفرد والمجتمع . **وقد قسم أفلاطون المجتمع إلى ثلاث طبقات هى : الحكام ، والجنود ، والطبقة الإنتاجية** . وذلك على أساس النجاح فى المراحل التعليمية . ومن الناحية الاقتصادية حرم الملكية على الجنود والحكام . كما نادى بضرورة الرقابة على الفن ، حتى يكون فى خدمة المجتمع . وطالب بالمساواة بين المرأة والرجل ، وقال بأن المرأة تستطيع الوصول إلى الحكم إذا إجتازت الإمتحانات . كما نادى بضرورة إصلاح الدين الإغريقى .

[٤] الفلسفة الأرسطوطاليسية (Aristotelian Philosophy)

وتنسب إلى مؤسسها **أرسطو : Aristotle** (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م) ، الذى يعتبر أعظم تلاميذ أفلاطون ، ولكن بينما كانت فلسفة أفلاطون تهتم بالتفكير الميتافيزيقى (أى التفكير العقلى) ، مع التركيز على الرياضيات والسياسة ، **كانت فلسفة أرسطو تقول بالتفكير العلمى الذى كان يقول بأنه لا يوجد شىء فى العقل لم يكن قبلا فى الحواس** . وكانت فلسفة أرسطو تهتم بالبيولوجيا والطبيعة ، ولهذا فهى تعتبر إلى درجة كبيرة فلسفة حسية ، وقد تأثرت بها فيما بعد " **الفلسفة الحسية** " الذى جاء بها **جون لوك ، وباركلى ، وهيوم** . **وقد قسم أرسطو الفلسفة إلى علوم نظرية ، وعلوم عملية ، وعلوم شعرية** .

فالعلوم النظرية تهدف إلى مجرد المعرفة وطلب الحقيقة لذاتها ؛ وتنقسم إلى ثلاثة أقسام : **طبيعيات** : وتبحث فى الوجود من حيث هو متحرك وموجود . **ورياضيات** : وتبحث فى الوجود من حيث هو مقدار وعدد مجرد عن المادة . **وإلهيات** : وتبحث فى الوجود من حيث هو وجود بالإطلاق . وكان أرسطو يطلق على مبحث الإلهيات " **الفلسفة الأولى** " ، تمييزا لها عن فلسفة العلم الطبيعى التى كان يسميها " **الفلسفة الثانية** " .

أما **العلوم العملية** فقد قسمها أرسطو إلى : الأخلاق والسياسة وتدبير المنزل . **والعلوم الشعرية** فموضوعها الإنتاج الفنى على إختلاف أنواعه . وقد ظل هذا التقسيم ساريا حتى بداية القرن السابع عشر ، عندما جاء فرنسيس بيكون بتقسيم مغاير كما سنرى .

وقد تميزت **المعرفة الطبيعية** عند أرسطو بالمعرفة الخارجية البسيطة للأشياء ، والتى تعتمد على الملاحظة المباشرة دون الذهاب إلى ماهية الحقائق . فقد كان يقول ــ على سبيل المثال ــ بأن شكل الجسم هو الذى يقرر : إذا كان الجسم يغرق أو يطفو ، إلى أن جاء بعد ذلك الرياضى والفيزيائى اليونانى **أرشميدس : Archimedes** (٢٨٧ ؟ - ٢١٢ ق. م) ، الذى اكتشف قانون الطفو بشكله الحالى وفيه يقرر أن طفو الأجسام يتوقف على وزن السائل الذى يزيحه الجزء المغمور من الجسم الطافى أو الجسم المغمور ، أى أن الطفو يتوقف على حجم الجسم المغمور وكثافة السائل .

٣. ١. ٣. المرحلة الثالثة : مرحلة ما بعد سقراط (Post-socratic Era)

وقد عرفت مرحلة ما بعد سقراط بـــ " **الفلسفة الهلنستية : Hellenistic Philosophy** " ، وقد جاءت هذه الفلسفة بفكر عملى يتناسب مع أوضاع اليونان السياسية والاجتماعية والتى كانت بحاجة إلى الإستقرار الفردي والجماعي ، عقب تفكك المدينة اليونانية بعد وفاة الإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق . م .

وقد تميزت الفلسفة الهلنستية لا بتفكيرها الميتافيزيقى ، بل بتفكيرها العملى . فقد إتجه فلاسفتها إلى العمل على إمداد الفرد بـــ " **لائحة سلوك : Code of Conduct** " ، تمكنه من إيجاد طريقة فى الحياة مبنية على الأخلاق والفضائل فى أعماله . ويمكن تقسيم الفلسفة الهلنستية إلى ثلاث فترات :

الفترة الأولى : وتمتد من نهاية القرن الرابع قبل الميلاد ، وحتى القرن الأول بعد الميلاد . وقد تميزت هذه الفترة بظهور " **الفلسفة الرواقية : Stoicism** " و " **الفلسفة الأبيقورية : Epicureanism** " . وقد تركزت هاتين الفلسفتين على السلوك والتصرفات الفردية والجماعية للحصول على السعادة المرجوة ، مع عدم تحديد منهج أو فكر فلسفى خاص بهما .

أما الفترة الثانية : فهى تمتد من القرن الأول بعد الميلاد إلى منتصف القرن الثالث ، وتميزت بظهور " **الفلسفة الشكية : Skepticism** " التى إهتمت بنقد التفكيرين العقلى (الميتافيزيقى) والعلمى من حيث مقدرتهما على الوصول إلى المعرفة اليقينية .

أما الفترة الثالثة : وهى الفترة التى تمتد من منتصف القرن الثالث بعد الميلاد ، وحتى منتصف القرن السادس أو السابع ، وتسمى بالمرحلة " **الأفلاطونية الجديدة أو المحدثة : Neo - Platonism** " ، وتمثل المرحلة الأخيرة من الفلسفة اليونانية القديمة . وقد تميزت هذه الفلسفة بمحاولة الجمع بين الأفلاطونية والأرسطوطاليسية ، أى الجمع بين التفكير الميتافيزيقى (أى أن العقل أصل المعرفة) وبين التفكير العلمي (أى أن الحواس والتجربة هما أصل المعرفة) ، وكان لهذه الفلسفة تأثيرا كبيرا فيما بعد على الفكر الأوربى . وسنقوم بإعطاء ملخص سريع عن كل مرحلة وأهم فلاسفتها فيما يلى .

[١] الفترة الأولى : الفلسفة الرواقية والفلسفة الأبيقورية :

- **الفلسفة الرواقية (Stoicism) :**

يعتبر **زينو : Zeno** (٣٤٠ – ٢٦٥ ق . م) المؤسس الإول للفلسفة الرواقية ، ثم خلفه **كريسيبوس : Chrysippus** ، الذى أعتبر المؤسس الثانى لهذه الفلسفة لقيامة بتنظيم مبادئها . وقد ركز الرواقيون على فلسفة الأخلاق ، وقد تأثروا فى ذلك إلى حد بعيد **بالمدرسة الكلبية (Dog-men)** . والكلبية تعتبر مدرسة أكثر منها فلسفة ، حيث تركز تعاليمها على الحياة الفاضلة ، وأن سعادة الإنسان الحقيقية تكمن فى السلوك الصحيح ، وذلك عن طريق سيطرة الإنسان على رغباته وشهواته من خلال إتباع قانون الطبيعة **(Law of Nature)** . والحياة عند الكلبيين ، وفقا لقانون الطبيعة ، تتميز بالتقشف كالمشى حفاة الأقدام ، وتغطية أجسادهم بقطعة خشنة ، وكان مأكلهم عدسا ، ومشربهم ماء . وقد اعتبر الكلبيون الفضيلة هدفا لهم ، فتبنوا أسلوب الوعظ والخطابة فى الأماكن العامة ، يوعظون به الناس . ومن ثم جاء اسمهم الكلبيون **(Dog-men)** ، لأن الكلب عند اليونانيين آنذاك كان تعبيرا عن عدم الخجل .

وقد اعتبر الرواقيين أن الفضيلة هي الشيء الهام كالكلبيين ، إلا أنهم إختلفوا عنهم فى طريقة تحقيقها . فليس بالتقشف يمكن تحقيق الفضيلة ، بل يمكن تحقيقها بما يتناسب وحياة بسيطة لا مترفة . وقد أخذ الرواقيون بعض مبادئهم من الأفلاطونية والأرسطوطاليسية ، من حيث أن

المعرفة نوعان ، روحية ومادية . وإعتقدوا ــ مثل هيرقليطس ــ بأن النار هى مادة كل شىء . كما قال الرواقيين بمذهب وحدة الوجود ، فقد إعتبروا أن المادة والحياة والروح مجرد جوانب مختلفة للحقيقة التى هى فى نهاية الأمر **غير معروفة .. وهى الله . وقد قال بنفس المذهب فيما بعد كل من أفلوطين وإسبينوزا وهيجل .**

- **الفلسفة الأبيقورية (Epicureanism) :**

ومؤسس هذه الفلسفة هو **أبيقور** : **Epicurus** (٣٤١ - ٢٧٠ ق. م) . ويمكن أن ينظر إلى هذه الفلسفة على أنها نظام عملى (**Practical System**) ، يهدف إلى فلسفة أخلاقية لتحقيق حياة إنسانية سعيدة . وقد ركز **أبيقور** على إرادة الإنسان ، حيث لا توجد أى قوة خارجية تعلو على الإرادة . **ومثل الكلبية ترى الأبيقورية أن المتعة ـ العقلية ـ غاية الحياة ، وفى المتعة توجد السعادة** . وتعتبر الأبيقورية تعبير سام عن الرغبة لنوع سام من السعادة عن طريق المتعة العقلية التى تستطيع السيطرة على الماديات . ويرى **أبيقور** أن المتع العقلية هى أسمى أنواع المتع ، فهى أسمى وأعلى من متع الجسد لأن الجسد يعيش الحاضر ، بينما العقل يرجع إلى الماضى وينظر إلى المستقبل ، وأنه بهذا الشعور يستطيع أن يقضى على حالة الضيق (**Distress**) من أسى وألم . ويقول **أبيقور** أن المعرفة الحسية هى معرفة مطلقة ، وهى معيار الحقيقة دائما ، وكل إحساس يعتبر صادقا ولا يمكن الشك فيه . أما الصواب والخطأ فإنه يرجع إلى حكمنا العقلي .

وقد قال الأبيقوريون بفناء النفس التى هى بنية من الذرات تنحل مع انحلال الجسد ، وأنكروا أن الآلهة تعاقب الشرير وتكافىء المستقيم ، لكنهم يجمعون أن الآلهة موجودة ، ولكنها لا تهتم بشئون البشر .

[٢] الفترة الثانية : الفلسفة الشكية (Skepticism)

بدأت الفلسفة الشكية بالمدرسة البيرونية ، ومؤسسها **بيرون** : **Phyrrhon** (٣٦٠ - ٢٧٠ ق. م) ، ويقال أنه رافق الأسكندر الأكبر فى مسيرته إلى الهند . وقال بيرون بأن نفس الأشياء تظهر مختلفة بالنسبة للأفراد المختلفة ، ويتوقف ذلك على الحالة النفسية والصحية للفرد (فالمريض لا يشعر بالمذاق) . كما وإن الأحكام تختلف باختلاف العادات والتقاليد والقيم فى المجتمعات . وبالتالى فكيف لنا أن نعرف اليقين ؟ وهكذا ليس بالإمكان التأكد من شىء . ولذلك أخذ بيرون بمبدأ تعليق الحكم (**Suspension of Judgement**) . كما ينبغى على

الحكيم ألا يقول " هذا كذلك " ولكنه يقول " هذا يبدو لى " أو " ربما يكون هذا كذلك " . وقد بحث بيرون مثل معاصريه عن **طمأنينة النفس** ، ووجدها وأتباعه فى تعليق الحكم ، لأن فى فلسفتهم أن جميع الأشياء غير ثابته وغير يقينية .

وكان هناك أيضا المدرسة الأكاديمية الجديدة (**The new Academy**) التى أخذت الشك كمنهج فلسفى لها . ومن أهم فلاسفتها أرقازيلاس : **Arcesilaus** (٣١٥ - ٢٤١ ق. م) الذى عرف عنه أنه لاشىء فى المحسوسات أو المرئيات يضمن لنا صدق الأشياء ، وبالتالى لا يمكن لنا التأكد من العالم المحيط . ثم جاء بعده كارنيادس : **Cardneades** (٢١٥ - ١٢٥ ق. م) الذى أكد بأن المعرفة اليقينية مستحيلة لأنه ليس هناك مقياس لها .

وقد استمر تأثير الفلسفة الشكية فى الفلسفة اليونانية حتى القرن الثالث بعد الميلاد . وظهر هذا التأثير واضحا فى فلسفة أوغسطين .

[٣] الفترة الثالثة : الفلسفة الأفلاطونية الجديدة (Neo - Platonism)

وهى تمثل الفترة الثالثة والأخيرة من الفلسفة اليونانية القديمة . وتمتد هذه الفلسفة من منتصف القرن الثالث وحتى منتصف القرن السادس بعد الميلاد . وتنسب هذا الفلسفة إلى أفلوطين : **Plotinus** (٢٠٥ - ٢٧٠) ، **وكان مصريا (من أسيوط) يتكلم اليونانية** ، ثم رحل إلى روما وأسس مدرسته عام ٢٤٤ . ويعتبر أفلوطين بلا منازع أعظم وأهم فلاسفة الأفلاطونية الجديدة ، وأكثرهم تأثيرا . وأعماله الفلسفية هى " **التساعيات** " وهى المعروفة بإسم " **الإنيدز : Enneads** " . وقد تأثر الفكر الأوربى بفلسفة أفلوطين من خلال تأثيره على فلسفة أوغسطين فيما بعد .

وقد عرف أفلوطين أن هناك حقيقتين : حقيقة العالم المرئى (**Visible Universe**) وحقيقة العالم المثالى (**Ideal Universe**) ، وفوقهما المبدأ الأول (**The First Principle**) أو الواحد (**The One**) أو الجيد (**The Good**) ، وأحيانا يسميه **الأب** (**The Father**) ، متأثرا فى هذا بالفكر المسيحى . وهذا **المبدأ الأول** أو الواحد يقع على قمة النظام فى فلسفة أفلوطين ، وهو أبعد من إدراك العقل أو الحس ، وهو ليس الوجود بل ما فوق الوجود ، وإنه غير متناه وغير محدود ، وهو مصدر الحقيقتين المرئية والروحيـــة ، والتفكيرين المادى والعقلى . وهنا نرى الخلاف بين فلسفة أفلاطون وأفلوطين . فقد وقف أفلاطون عند العالم

المثالى وقال بأنه هو أعلى حقيقة ، بينما أفلوطين تعدى هذا (العالم المثالى) إلى المبدأ الأول أو الواحد وأنه هو مصدر الحقيقة .

ويشير أفلوطين إلى الحقيقة بأنها ذات مستويين : **المستوى الأول** : ويطلق عليه المستوى الروحى (**Spiritual**) وهو يمثل العقل الإلهى (**The Divine Mind**) أو الجانب الأعلى من الحقيقة . **والمستوى الثانى** : ويطلق عليه المستوى المادى (**Cosmic**) ، وهو يمثل صورة الحقيقة (**The Real Form of Reality**) ويعبر عن العالم المرئى (**The visible Universe**) .

وهذان المستويان يمثلان الجانبين الرئيسيين للحقيقة ، ولكل مستوى الخصائص والقيم المختلفة التى يتميز بها ، الأمر الذى يجعل ضرورة إعتبارهما جانبين للحقيقة المتكاملة . وهذا يعنى أن تفكير أفلوطين كان متجها نحو إعتبار وجود العالم الروحى بجانب العالم المادى .

٣. ٢. فلسفة العصور الوسطى (Medieval Philosophy)

بدأت الفلسفة المسيحية فى الظهور فى العصر الوسيط منذ حوالى القرن الخامس الميلادى . وظلت قائمة حتى منتصف القرن الخامس عشر تقريبا . وكانت السيادة فى تلك الفترة لتعاليم الكنيسة ، ولهذا كان دور الفلسفة هو دور الخادم للتأسيس العلمى للعقيدة والدفاع عنها . لذا جاءت هذه الفلسفة فى جوهرها إمتدادا لفلسفة أفلاطون وأرسطو اليونانية القديمة ، ولكن فى ثوب دينى مسيحى . فالتفكير الفلسفى فى العصور الوسطى تميز بأنه تفكير ميتافيزيقى تغلب عليه النزعة الدينية ، متبعا فى ذلك المنهج الإستنباطى (**Inductive Method**) الذى يبدأ بالطريقة القبلية (**A Prior Method**) ، **والتى تهدف إلى ملاءمة الحقائق (Facts) بالنظرية (Theory) . أو بمعنى آخر ، ضبط الحقائق على الفكر الدينى أو القيام بالتبرير ، كما سبق وأن بينا هذا فى الفصلين الثانى والثالث .**

كما ظهرت فى نفس الوقت **الفلسفة الإسلامية** ، حين شرع المسلمون فى بناء حضارتهم الجديدة اعتبارا **من القرن السابع وامتدت حتى القرن الثانى عشر** الميلادى . وقد اتسمت هذه الفلسفة بأنها ذات طابع ديني إسلامي ، **وأهم فلاسفتها : الكندى** ، والفارابى ، **وابن سينا** ، **والغزالى** ، **وابن رشد** . ولن أناقش هنا الفلسفة الإسلامية لأن الغرب عادة ما ينكر دورها عليهم من جانب ، كما وإنه يصر دائما ويؤكد على تأثر هذه الفلسفة ــ الإسلامية ــ بالفلسفة اليونانية القديمة والأفلاطونية المحدثة أو الجديدة من جانب آخر .

ولم يتنبه الغرب إلى أن الفلسفة الإسلامية لم يتجاوز معناها أكثر من : تأويل .. أو تفسير .. أو شرح .. بعض من آيات القرآن المجيد ، بالقدر الذى أدركه أو فهمه الفيلسوف من خلال ثقافته وقدراته الخاصة ، وكذا من خلال الخلفية العلمية لثقافة عصرة فى ذلك الوقت . أو بمعنى آخر فإن الفلسفة الإسلامية : هى رؤية جزئية من محيط هائل من المعرفة المطلقة لما ورد ذكره فى القرآن المجيد ، استطاع الفيلسوف الإسلامى مشاهدتها من خلال فكره وتجربته الخاصة مع هذا الكتاب (أى القرآن المجيد) [٤٧] ، وهذه الرؤية تعكس ثقافته وثقافة عصرة كما سبق وأن بينا هذا ببعض الأمثلة المذكورة هنا .

كما لم يتنبه الغرب أيضا ، إلى أن فلسفاته السابقة ــ بصفة عامة ــ لم تتجاوز فى معناها عن مس ــ ومن بعيد ــ لبعض الحقائق التى ورد ذكرها فى القرآن المجيد (على النحو السابق الإشارة إليه بإيجاز شديد فى هذا الفصل) [٤٨] ولهذا قدر لهذه الفلسفات البقاء لما فيها من قدر معقول من بعض الحقيقة والتى تتمثل فى علوم الفطرة لدى الإنسان . ولهذا سنكتفى هنا بمناقشة فلسفة العصور الوسطى الأوربية فقط ، والتى تشمل الفلسفات التالية : الفلسفة الأوغسطينية ، والفلسفة الأكوينية .

٣. ٢. ١. الفلسفة الأوغسطينية (Augustinian Philosophy) :

وتنسب هذا الفلسفة إلى القديس أوغسطين : St. Augustin (٣٥٤ - ٤٣٠) ، الذى ولد فى تجاست : Thagast (حاليا سوق أهراس بشرق الجزائر بالقرب من الحدود التونسية) ، عام ٣٥٤ م. قبل مجيء الإسلام ، من القديسة " مونيكا " ، ثم إنتقل فيما بعد إلى ميلانو بروما . وهو يعتبر من أعظم علماء الدين المسيحى الذين أنجبهم الغرب .

---

[٤٧] كما أود أن أضيف ــ هنا ــ إلى أن كبار الفلاسفة المسلمين قد خاضوا غمار الفلسفات الأجنبية بين يونانية وهندية وفارسية وعرضوا لكل مشكلة من مشاكل العقل والأيمان فيها ، وتكلموا عن وجود الله ووجود العالم ووجود النفس ، وخرجو من سبحاتهم الطويلة فى هذه الفلسفات فلاسفة مسلمين دون أن يعنتوا أذهانهم فى التأويل والتخريج . ومنهم كذلك ؛ من ترجم أرسطو وأفلاطون إلى الاسلام ولم يصر عليهم أن يذهبوا معهما إلى أقصى مدى فى رأى العقل دون أن يخرجهم هذا من حظيرة الدين الإسلامي .

[٤٨] وهذا ما دفع بالفيلسوف العربي الأندلسي " ابن رشد " (١١٢٦ ــ ١١٩٨) إلى القول بأن " أرسطو " ، كان حنيفا مسلما . بل وذهب ابن رشد إلى أبعد من هذا عندما أخذ فى تنقية فكر أرسطو من كل ما يخالف العقيدة الإسلامية . ويعرف ابن رشد فى الغرب باسم : " Averroës " ، وهو الذي حاول التوفيق بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية .

وقبل أن يتجه أوغسطين إلى الدين ، كان فاسقا ومشهورا بحبه للعنف وللنساء . فلما إتخذ اتجاهه الجديد لم ينس ماضيه بل تأثر به إلى الحد أنه أصبح له مقاييس متشددة فى مجال الجنس . ووصل به الأمر إلى ربط الجنس بالذنب حتى من خلال الزواج . وكان إرتفاع شأن العزوبة عند القديس أوغسطين هو منشأ فكرة عزوبة رجال الدين فيما بعد ، والتى قد نشأت كشئ مستحب وانتهت كواجب ملزم لكبارهم [٤٩] .

وقد اهتم أوغسطين فى بداية حياته بدراسة اللاهوت والمسيحية ، قبل أن يبدأ معرفته بالفلسفة . وقد أعجب أوغسطين بأفكار أفلوطين لما وجد فيها من تشابه بين تعاليمه ، وبين ما جاءت به الأناجيل من تعاليم كالتوافق بأن الله روح لا مادة ، وأن العقل الإلهي مطلق . واعتقد أوغسطين في أن المعرفة لا تبحث لأسباب أكاديمية بل تبحث لتحقيق السعادة . وأن الإنسان الحكيم هو فقط الذى يستطيع أن يكون سعيدا ، والحكمة تتمثل فى البحث عن المعرفة ، والسعادة توجد فى البحث عن الحقيقة . ويعتبر أوغسطين أن المعرفة العقلية تأتى فوق المعرفة الحسية . ويبين لنا أوغسطين أن المعرفة التى تأتي لعقولنا ليست من عمل عقولنا ، بل هى من عمل الموجود الذى هو وحده قادر وأبدي وغير متغير ، وهو الله .

واقترح أوغسطين " نظرية الإنارة : The Theory of Illumination " ، والتى تقول بأننا لا نستطيع أدراك حقيقة الأشياء ما لم تأت لنا من الله . فالله خلق العقل ، والعقل يستنير بالله ليدرك الحقيقة ، فالمعرفة لديه هى معرفة روحية وليست معرفة مادية للعقل .

والزمن فى فلسفة أوغسطين ظاهرة ذهنية هامة تمتد فى الروح . فالماضى ذكرى (Memory) ، والحاضر انتباه (Attention) والمستقبل توقعات (Expectations) ، ويتلاشى الحاضر فى الماضى . ولا يعتقد أوغسطين بأن العالم خلق فى موعد ولكنه خلق مع الزمن . وعندما سئل أوغسطين ماذا كان يفعل الله قبل خلق العالم ؟ كان يجيب بأن حياة الله أزلية وليس هناك شئ اسمه قبلا .

---

٤٩ " التاريخ الأسود للكنيسة " القس دى روزا ، الدار المصرية للنشر والتوزيع . ص : ١٩٩ / ٢٠١ .

٣. ٢. ٢. الفلسفة الأكوينية (Aquinian Philosophy)

وتنسب هذا الفلسفة إلى القديس **توما الأكويني** : **Thomas Aquinas** (١٢٢٥ - ١٢٧٤) ، الذى ولد فى روكاسيكا (**Rocasecca**) بالقرب نابولى بإيطاليا . ودرس اللاهوت وتتلمذ على يد القديس ألبرت الكبير وتأثر بفلسفته .

وفلسفة توما الأكويني هى فلسفة تلاؤم بين الفلسفة اليونانية والمسيحية من جهة ، والفلسفة الأفلاطونية والأرسطوطاليسية من جهة أخرى . ولكنه يعلو بفكر أرسطو على فكر أفلاطون ، أى **يعلو بالفكر العلمي على الفكر الميتافيزيقي** . ولهذا نجد توما يقبل بمبدأ المعرفة بطريق الحس والمنطق دون مساعدة الروح ، وهذا الإتجاه يعنى لديه أن التفكير العلمى يبقى مميزا فى فلسفته الأكوينية . ويقول بأن الفيلسوف يجادل بأن الله هو الخالق ، فمعرفة الفيلسوف بالله تأتى نتيجة جـــدل عقلي منطقي ، فى حين معرفة اللاهوتي عبارة عن وجود الله كحقيقة لا فرض يدعو للجدال . **ويعتقد الأكويني بأن ليس بوسع الفرد أن يعرف نفس الحقائق علميا ، ويعرفها فى نفس الوقت ويصدقها بالإيمان . فمن وجهة النظر هذه ، يجب الفصل بين القضايا الإيمانية ، والحقائق العلمية** (لاحظ هنا استحالة الجمع بين العلم والعقيدة المسيحية) .

وهذه الثنائية الحادة بين العلوم الطبيعية والوحي الإلهي قال بها ، فيما بعد ، " **بيكون** " بمنتهى الوضوح ، كما سبق وأن أوضحنا هذا . فالعلم والدين فى الفكر المسيحي لا يجتمعان تحت أى تصور ، لذا كان يلزم الفصل دائما بينهما ، حتى يمكن الإحتفاظ بالدين . ولهذا كان يقول **بيكون** بأن الفيلسوف الذى ينغمس فى اللاهوت (أى فى الفكر الديني) يخلق مذهبا خرافيا جامحا ، على حين أن اللاهوتي (أى رجل الدين) الذى يهتم اهتماما مغاليا بالفروق الفلسفية والكشوف العلمية ينتهى إلى الكفر والزندقة .

٣. ٣. فلسفة عصر النهضة (Renaissance Philosophy)

ويشير هذا المصطلح إلى حركة الفكر العلمية والثقافية (أى الأخلاقية والدينية) ، التى بدأت فى إيطاليا فى القرن الرابع عشر وانتشرت فى جميع أنحاء أوربا حتى القرن السادس عشر . وأهم ما يميز فلسفة عصر النهضة يرجع إلى الإكتشافات العلمية فى تلك الفترة . ومفهوم العلم عند علماء النهضة له وجهان ، علم نظرى (**Theoretical**) ويمثل المحاولة لفهم العالم ؛ وعلم عملى أو تطبيقى (**Practical**) وهو يمثل المحاولة لتغيير العالم . وقد لاقت النظريات العلمية الجديدة فى تلك الفترة مقاومة شديدة من جانب الكنيسة . فعندما جاء

كوبرنيكوس : Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤٣) الفلكى البولندى ، بنظريته العلمية التى تقول بأن الشمس هى مركز العالم ، وأن الأرض هى التى تدور حولها ، رفض اللاهوتيون هذه النظرية وقاوموها بعنف . وعندما جاء جاليليو : Galileo (١٥٦٤ - ١٦٤٢) عالم الفلك الإيطالى ، ومكتشف الطريقة التجريبية (Experimental Method) ، بالبرهنه العملية على نظرية كوبرنيكوس بإستخدام تليسكوبه ، حكمت عليه الكنيسة بالسجن ، ومات كفيفا فى السجن غير مسموح له بالاتصال بأحد ، وبمصادرة كتبه (راجع الفصل الأول ؛ بند ٨) .

وقد أدى تقدم العلوم فى عصر النهضة إلى ظهور **المنهج الاستقرائي** [٥٠] ، كما أدى تقدم الرياضيات إلى ظهور **المنهج الاستنباطي** [٥١] ، وقد أدى هذا إلى فتح آفاق جديدة للمعرفة ، أدت إلى التمييز بين سلطة العلم وسلطة الكنيسة ، أي **المعرفة العلمية والمعرفة اللاهوتية** .

---

[٥٠] **المنهاج العلمى أو المنهاج التجريبى أو المنهاج الاسقرائي (The Scientific or The Emperical or The Inductive Method) هو منهاج البحث فى العلوم الطبيعية . وخطوات هذا المنهاج (الاستقرائى) هى كالآتى : (١) ملاحظة الظاهرة وجمع المعلومات عنها . (٢) وضع المسلمة أو الفرض أو الفروض الأساسية واللازمة لوصف الظاهرة . (٣) التجربة أو التجارب المختلفة التى تمثل الإختبار النقدى للفروض الموضوعة وكذا التأكد من صحتها . (٤) القانون ، أى الخروج بالقانون العام أى العلاقة الثابتة التى تخضع لها الظاهرة والذى يمكن استخدامه ــ فيما بعد ــ فى تطبيقات أخرى . والخطوات المذكورة عن هذا المنهج لم تكن معروفة وقت بيكون ، كما وإن بيكون نفسه لم يكن يعرف إلا جزئيات منها فقط ، وقد أكمل هذه الخطوات الفلاسفة من بعده أمثال : مل ، وسميث .**

[٥١] **تعتمد الرياضة على " المنهاج الاستنباطي : The duductive Method " : (أو الاستنباط العقلى) ؛ وهو المنهاج الذى يستخلص النتائج من المقدمات بالعقل . وفيه يعتمد الباحث على التحليل العقلي والمنطقي للوصول إلى النظرية المطلوبة مبتدءا بالتعريفات والبديهيات والمسلمات الأولى التى يمكن أن يستخلص منها النظرية .**

وأشير هنا إلى أنه ليس هناك معنى لهذه التفرقة بين المنهاجين وهذا التخصيص ، أى المنهاج الاستقرائي للتجربة الفيزيائية ، والمنهاج الاستنباطي للرياضة . ففى الواقع ، كلا المنهاجين أساسيين وضروريين ، بل ولازمين ولا غنى عنهما فى مجال الفيزياء العامة (أي فى مجال التجربة والنظرية والتعميم ، وهو ما يعرف أيضا باسم : الرياضة التطبيقية : Applied Mathematics) . فعلى سبيل المثال ، نجد أن النظرية النسبية الخاصة قد بنيت على مسلمتين أساسيتين ، سبق الإشارة إليهما فى مقدمة هذا الكتاب ــ وأستنبط منهما ، بطرق رياضية بحته " تحويلات لورانتز : Lorentz Transformation " التى تعتبر الأساس النظرى لجميع النتائج العملية التى تنبأت بها هذه النظرية ، ومنها قانون (الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء) ، ومنها كذلك قانونى تغير كتلة الجسم مع حركته ، وكذا إعتماد طول الفترة الزمنية على حركة النظام .. إلى آخره .. من كثير من النتائج التى ثبت صدقها بالتجربة المعملية . وجميع هذه التنبؤات الفيزيائية قد جاءت بطرق أستنباطية أى رياضية بحته ، وليست بطرق إستقرائية ؛ على الرغم من أنها تقع جميعها داخل المنطقة أو المساحة الفيزيائية للعالم المشهود ، وبذلك تم التثبت من صدقها فيما بعد .

بمعنى التمييز بين المعرفة التى تأتي من التعاليم الدينية أو الوحي الإلهي (Divine The Revelation) كما جاءت به الديانة المسيحية ، وبين المعرفة التي تأتى من المقدرة الفكرية أو الفكر الإنسانى (The Human Reason) استنادا إلى فلسفة أرسطو وفكره التجريبي . وقد تمخض هذا الوضع عن نتائج عممت آثارها ، وما زلنا نعاني منها إلى الآن ، وهذه النتائج هى :

(١) إما أن يقبل الإنسان بتفوق فكره على الفكر الإلهي الخالق ، أو أن يقوم الإنسان بالتخلص من الفكر الدينى على نحو مطلق . وما يترتب على هذا من إنكار لوجود الخالق ، أو على الأقل استبعاد " الفكر الإلهي " من قضية الوجود والمصير ، وما يتبع هذا من القول بعبثية الوجود كما قالت به الفلسفة الوجودية . وهنا لم يتبق للإنسان للبحث عن الله إلا الاعتماد على فكره وذاته ، على النحو السابق ذكره .

؛ أو

(٢) أن يقوم الإنسان بمحاولة الجمع بين المتناقضات ، أى الجمع بين الفكر الديني الأسطوري من جانب ، وبين العلم التجريبي غير القابل للشك من جانب آخر ، وما يترتب على ذلك من إلغاء عقل الإنسان فى القضايا الدينية على نحو مطلق ، وظهور " ظاهرة التبرير " أو المرض النفسى الذى يقول به علماء النفس ، على النحو السابق مناقشته فى الفصل الثانى .

؛ أو

(٣) أن يقوم الإنسان بالفصل التام بين الدين والعلم ، واعتبار أنهما قضيتان مختلفتان ومستقلتان تماما كل منهما عن الأخرى ، حتى وإن جاء الدين بعكس ما يجيء به العلم . فيكفى ــ فى هذه الحالة ــ إلغاء العقل والقول باستقلالية القضيتين ..!!

وأهم فلاسفة هذا العصر ، أى عصر النهضة هم : فرنسيس بيكون ، ونيقولا ماكيافيللى ، وتوماس هوبس . وسنعرض لفلسفاتهم فى إيجاز شديد .

فرنسيس بيكون : Francis Bacon (١٥٦١ – ١٦٢٦) ، رأى أن الأمل الوحيد للمعرفة هو عن طريق المنهج العلمى أو التجريبى (أى المنهج الإستقرائى : Inductive Method) [٥٢] ، واستخف بالمنهج الرياضى (أى المنهج الإستنباطى : Deductive Method) [٥٣] . وهذا يعني إنه قد ركز على العلوم والطبيعيات وأهمل الرياضيات . وقد تخطى بيكون

---

[٥٢] أنظر تذييل رقم (٥٠) السابق .

[٥٣] وفى هذا المنهج يتم إستخلاص النتائج من المقدمات بالعقل (أنظر تذييل رقم ٥١ السابق) .

التقسيم الأرسطى للفلسفة ، واعتمد تصنيفا أخر يعتمد على القوى العقلية المدركة ، وقرر أن البحث السيكولوجى يجب أن يكون أساسا لكل فلسفة وكل علم . وقد حصر بيكون القوى العقلية فى ثلاثة أمور هى :

(١) **الذاكرة** : وبها نحصل على معرفة التاريخ . (٢) **الخيال (أو المتخيلة)** : وبه نحصل على معرفة الشعر ، وأخيرا (٣) **القوى العقلية المفكرة** : وبها نحصل على الفلسفة . وتنقسم الفلسفة ــ هي الأخرى ــ إلى ثلاثة أقسام هى **الفلسفة الإلهية** (وتعنى بدراسة الدين وما يحويه) ، **والفلسفة الطبيعية** ، وتعنى بدراسة الأشياء المادية ثم الميكانيكا ثم السحر (لاحظ إدراج السحر ضمن الفلسفة الطبيعية) ، ثم أخيرا **الفلسفة الإنسانية** (وتعنى بدراسة جسم الإنسان والفسيولوجيا والتشريح ، وعلم النفس ، والعلاقات السياسية والاجتماعية) .

نيقولا ماكيافيللى : **Nicola Machiavelli** (١٤٦٩ – ١٥٢٧) ، وكانت فلسفته واضحة فى كتابه " **الأمير** " وتتميز بأنها فلسفة سياسية وعلمية تطبيقية . وقد نشر هذا الكتاب الذى تعتمد عليه شهرة ماكيافيللى السيئة فى عام ١٥٣٢ م ، أى بعد وفاته بخمسة أعوام . وفلسفة ماكيافيللى هذه مبنية على تجربته الخاصة لاخضاع الوسيلة (**means**) لتبرير الغاية (**end**) ، أو أن **الغاية تبرر الوسيلة** . وكان يرى أن الحياة السياسية نضال (**Struggle**) ، وأن الفضائل تعرض السياسة للخطر ، **وكان يرى أن الخداع والنفاق وشهادة الزور ضرورية ومغتفرة من أجل الاحتفاظ بالقوة السياسية** . وأن الحاكم يمحي إذا كان دائما فاضلا . ولا بأس من استعمال الإرهاب في وحشية لاستمرار من دحرهم الحاكم . كما ينبغي للحاكم أن يقبض بطغيان على البلاد التي دحرها . ولهذا ظلت الميكافيلية عالقة فى ذهن العالم لمدة تزيد على الأربع قرون على إنها شيء مرادف لعمل شيطانى وخائن ونذل وقاس وخبيث ، وقد قال البعض **إن كتاب " الأمير " ضروري للطغاة** [٥٤] .

ثم نأتى إلى توماس هوبز : **Thomas Hobbes** (١٥٨٨ – ١٦٧٩) ، ونال شهرته من تأليفة لكتاب " **اللوتيان : Leviathan** " ، وقد قوبل هذا الكتاب بالنقد الشديد من قبل الكنيسة ، كما اتهمته الكنيسة بالإلحاد . وقد تأثر هوبز بجاليليو ، ولهذا نراه يؤكد على الجانب العملي فى الفلسفة وأن وظيفة الفلسفة هو المساهمة فى ثراء الإنسان المادي . فالفلسفة لديه تبدأ من العالم التجريبي لتنتهى بالنتائج . فالمعرفة الفلسفية لديه هى معرفة النتائج

---

٥٤ " كتب غيرت وجه العالم " روبرت ب. داونز ؛ ترجمة أمين سلامة . الهيئة المصرية العامة للكتاب . ص : ٣١/٤٧ .

(Cosequences) . أو بمعنى آخر ، أن فلسفته هى فلسفة منهجية (Methodological) ، تبدأ باستخدام المنهج الاستقرائي من فروض مستمدة من العالم المادى (من ملاحظة وتجربة وتدوين) ، وتنتهي باستنباط أو باستنتاج النتائج النهائية التى تسمح بالتطبيق أو التعميم . وبديهى أن فلسفة بهذا الفكر لم تتجاوز فى معناها عن أسلوب تناول بحث الظواهر الطبيعية المختلفة ، والتى يمكن الانتهاء منها بقوانين عامة تسمح بتطبيقها أو إستخدامها فى مجالات أخرى لنفس الظاهرة ، ولكن بتباينات أو ظهورات مختلفة . وبديهى أن فلسفة كهذه لا يمكن أن تقود إلى أى فكر يذكر عن الإنسان أو عن الله ، أو عن الدين ، لهذا نرى هوبز يقول :

" أن الدين ليس أمرا من أمور الفكر ، وإنما هو أمر من أمور الاعتقاد ، ولا يجوز الخلط بين العقيدة والعقل . فحيث ينتهى العقل تبدأ العقيدة ، وحيث ينتهى العلم يبدأ الإيمان " .

وهذا يعني أن العقيـــدة لا عقل لها والإيمان لا علم فيه ..!! وبديهي هذا هو حـــال تجربته مع الفكر المسيحي .

٣. ٤ . الفلسفة الحديثة (Modern Philosophy)

بدأت الفلسفة الحديثة تظهر فى أوربا والعالم الغربى منذ منتصف القرن الخامس عشر الميلادى تقريبا ، وذلك مع بداية النهضة الأوربية ، وحتى نهاية القرن التاسع عشر . وقد أخذت الفلسفة فى العصور الحديثة صورتين أساسيتين هما : " **الفلسفة العقلية : Rationalism** " المبنية على العقل وتعكس صور التفكير الميتافيزيقي . أما الصورة الأخرى فهى " **الفلسفة الحسية : Empericism** " المبنية على الحس وتعكس صور التفكير العلمي .

وتشمل الفلسفة الحديثة " **ستة فلسفات** " هى : (١) **الفلسفة العقلية** ، (٢) **الفلسفة الحسية** ، (٣) **فلسفة التنوير** (وتنقسم إلى الفلسفة الرومانسية ، والفلسفة النفعية) ، (٤) **الفلسفة الكانطية** ، (٥) **الفلسفة المثالية** ، (٦) **الفلسفة المادية** . وجميع هذه الفلسفات تدور فى فلك تحديد نظرية المعرفة (**Epistemology**) أو (**Theory of Knowledge**) عند الإنسان ، وهل أصلها عقلى (أى التفكير الميتافيزيقي) ، أم أن أصلها حسي (أى التفكير العلمي) ، أم أن أصلها مشترك بين العقل والحس . وسنأتي إلى شرح موجز لهذه الفلسفات وأهم فلاسفتها فيما يلي .

٣. ٤. ١. الفلسفة العقلية (Rationalism) :

والفلسفة العقلية أو المذهب العقلي (Rationalism) هى الفلسفة أو المذهب الذى يقول بأن المعرفة مصدرها العقل لا الحس . وتعتبر هذه المعرفة معرفة " قبلية : A priori " ، أي معرفة فطرية لا مكتسبة ، فهى معرفة موجودة بالعقل وتدرك بـ " الحدس : The Intuition [٥٥] " دفعة واحدة وليست تدريجيا . ومنهاج **المعرفة العقلية** هو منهاج استنباطي (Deductive) ، بينما منهاج المعرفة الحسية هو منهاج استقرائى (Inductive) . وتبدأ المعرفة العقلية بالبديهيات أو المسلمات أو الفروض الأولية أو بهم جميعهم (وهى أوليات معرفة وصادقة) لتنتهى بالحقائق الواقعة . أي أن المعرفة العقلية تبدأ بالنظرية وتنتهى بالواقع . كما يعرف أيضا " التفكير العقلى " باسم " التفكير الميتافيزيقى " . وأهم فلاسفة هذه الفلسفة هم ؛ **ديكارت ، وإسبينوزا ، ولايبنتز** . وسوف نعرض باختصار إلى أهم إتجاهاتهم الفلسفية كما يلى .

رينيه ديكارت : René Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠) . عَلّق بعد تخرجه من كلية الجيزويت ، بأنه على الرغم من دراسته بأفضل الكليات وعلى أيدي أفضل رجال العلم إلا أنه زاد شعورا بالجهل ، وكان بيكون قد خرج بنفس الشعور من جامعة كمبردج . وقد اعتقد ديكارت أن أكثر الطرق الفلسفية إثارة هى **المعرفة العقلية** ، فعن طـــريق التأمل والعقل نصل إلى معرفة اليقين . فالمعرفة لديه ذهنية لا حسية ، لأن المعرفة بطريق الحواس غير يقينية والأشياء لا تفهم كما تظهر للحواس بل كما تتراءى للذهن . وقال بأن المعرفة اليقينية هى أفكار فطرية (Innate Ideas) تولد مع الإنسان ولا تكتسب بالتجربة ، وأن العقل فقط هو مصدر المعرفة اليقينية عكس المعرفة الحسية ، وأن هذه المعرفة تستند إلى الاستنباط العقلى (Deduction) ، بحيث ينتقل الذهن مباشرة من المجهول إلى المعلوم .

وتبدأ المعرفة لدى ديكارت بالشك فى كل شيء ما عدا الفكر . وفى عبارته الشهيرة " **أنا أفكر إذن أنا موجود : I think therefore I am** " ، وهى باللاتينية " **Cogeto ergo sum** " (ولهذا يعرف هذا البرهان باسم **الكوجيتو**) ، توضيح لمنهجه الفلسفي للمعرفة ، وهو إذا

---

[٥٥] الحدس : The Intuition : هو الإدراك المباشر للحقيقة أو الحقيقة المقترحة ، بدون الإستعانة بأية عملية عقلية واعية . ويطلق نفس المصطلح أيضا على " الملكة " التى يتم بواسطتها هذا الإدراك وقد عرف " برجسون " الحدس بأنه الملكة التى نتمكن بها من رؤية الكون مباشرة بوصفه كلا منظما و [هنرى برجسون : هو فيلسوف فرنسى (١٨٥٩ - ١٩٤١) ، نال جائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٢٧] .

توقفت عن التفكير فأين الدليل على وجودي ؟ وقد قال ديكارت بأساسيات (أو جواهر) ثلاثة هى : **المادة والعقل والله** . و**المادة** لديه هى الكون الفيزيائى والذى تكون أجسامنا جزء منه ، أما **العقل** و**الله** فهما الروح أو الفكر لديه . وكان يعتقد أن العقل يشبه الله فكلاهما مفكر ، ولكن ليس لديهم وجود فيزيائى ملموس ، وكان يؤمن بأن الله لانهائى ولا يتوقف وجوده على خالق آخر .

ويقول **ديكارت** بأن الفلسفة تشبه الشجرة جذورها الميتافيزيقا وجذعها الفيزياء وأغصانها هى العلوم الأخرى . وقد تأثر هيديجر (أحد رواد الفلسفة الوجودية) بهذا التحليل الديكارتى وتساءل فى أى تربة توجد جذور شجرة الفلسفة هذه ؟ وقد وضع ديكارت لنفسه مبادىء أخلاقية فلسفية معتقدا أنها ستقوده إلى السعادة ، مع الإلتجاء إلى الديانة والتى فيها عظمة الله .

ثم نأتى إلى إسبينوزا (**باروخ بينيدكت إسبينوزا : Baruch Benedict Spinoza**) (١٦٣٢ – ١٦٧٧) الذى قدم إلى هولندا مع **أسرته اليهودية** من البرتغال . وقد كرس حياته للدراسة الفلسفية ، بينما كان كسب عيشه من صقل الساعات ، وقد رفض وظيفة أستاذ للفلسفة فى هيدلبرغ معتقدا أن ذلك سيأخذه من حريته وهدوئه . ومن كتبه " **المعاهدة السياسية اللاهوتية** " الذى نشر تحت اسم مستعار وأثار ضجة كبيره لآرائه التشككية الدينية .
وقد هاجم **إسبينوزا** رجال الدين اليهودي وقال : " إنهم يتربصون بالفلسفة ورجالها ، ويعلمون بأن إظهار الحقيقة وتبديد الجهالة سيؤدى إلى إزالة الغشاوة عن قلوب الناس وعقولهم ، **لأن الجهل هو وسيلتهم الوحيدة للإحتفاظ بسلطتهم ونفوذهم** " . ولهذا السبب أعلن **الكنيس اليهودى** (المجلس المللى) عام ١٦٥٦ حرمان إسبينوزا من الرحمة ، وإنزال اللعنة به ، وفصله عن شعب إسرائيل [٥٦] . وقد اتهم المجلس المللى **إسبينوزا** بالهرطقة (أى الضلال الدينى) ، وكانت التهم الموجهة له : **هو أنه يقول أن لله جسدا هو عالم المادة (أو الكون) ، وأن الملائكة خلط وهذيان ، وأن النفس قد تكون مجرد الحياة ، وأن التوراة القديمة لم تذكر شيئا عن الخلود** . وقد حاول أحد الطلاب المتعصبين قتله نتيجة آرائه الدينية هذه فأصابه بجرح فى رقبته ، ولكنه نجى من الحادث . وقد جعله هذا الحادث يمضى حياته منعزلا مع الفلسفة فى غرفة عند عائلة خارج المدينة (أمستردام) .

---

٥٦ " قصة الفلسفة " ؛ ول ديورانت . ترجمة د. فتح الله المشعشع . مكتبة المعارف ، بيروت . ص : ١٩٢ ، وما بعدها .

وتتسم فلسفة إسبينوزا بالوحدانية (Monism) ، والجوهر فى فلسفة إسبيوزا هو الله أو الطبيعة ، وإنه سبب وجود الأشياء جميعا ، وكل حقيقة ما هى إلا صفة من هذا الجوهر . وكان هدف إسبينوزا أن يحررنا من الخوف وانفعالاته . فكان يقول بأن العاقل لا يندم على فعل أو فاجعة ، فالماضى والمستقبل ثابتان لا تعديل بهما [٥٧] . والمعرفة فى نظر إسبينوزا قوة وحرية والطريق الوحيد للسعادة . ويقال أن إبداع إسبينوزا المنهجى الفلسفى يكمن فى الطريقة التى يجمع فيها بين المبادىء الديكارتية وبعض المبادىء الأرسطوطاليسية .

ثم نأتى إلى لايبنتز (غوتفريه ولهلم لايبنتز : Gottfried Wilhelm Leibnitz) (١٦٤٦ - ١٧١٦) من مدينة لايبزج بألمانيا . وقد رأينا مما سبق ؛ أن ديكارت كان يقول بجواهر ثلاث هى العقل والمادة والله ، وقال إسبينوزا بالجوهر الواحد وهو الله . أما لايبنتز فكان يعتقد بعدد لامتناه من الجواهر المفردة سماها " الموناذات : Monads " . وكل جوهر هو

---

[٥٧] ولا أدرى .. أيكفى تلك الكلمات السطحية للتحرر من الخوف . فبديهى مثلا لا يمكن التحرر من خوف الموت ، وهو قمة الخوف وإنفعالاته ، إلا بالإدراك اليقينى للفرد لما يحدث له عند الموت وبعده . ولا نجد هذا اليقين إلا فى الديانة الإسلامية فقط . ويعرض المولى ــ عز وجل ــ قضية التحرر من الخوف على نحو مطلق ، ومنها الخوف من الموت فى القضايا الإختبارية (أى التى يمكن التحقق من صدقها بالإختبار) التالية فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٤) وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) ﴾

(القرآن المجيد : فصلت {٤١} : ٣٠ - ٣٦)

وتنزيل الملائكة يتراوح بين الإلهام أو القذف الروحى أو القلبى إلى ظاهر النص الحرفى ... ولهذا نرى المسلم الحق لا يتهيب الموت . بل إن الأمر كان يصل ببعض صحابة الرسول (ﷺ) إلى رؤية مقاعدهم من الجنة قبل موتهم ، ولهذا كانوا يستعجلون نيل الشهادة . وفى هذا المعنى يقول لنا المولى عز وجل :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) ﴾

(القرآن المجيد : آل عمران {٣} : ١٦٩ - ١٧٠)

فرد ــ متناه ــ وله صفة جوهرية واحدة هى الفكر أو الله . وفوق المونادات المتناهية توجد المونادا العظمى اللامتناهية أو الله . وأفكاره هذه نجدها فى علم المونادولوجيا (**Monadology**) ، أى علم الجواهر . ويقول بأن رؤية الجواهر (أى جوهر الأشياء) هى رؤية فطرية ، وتنتج تلقائيا من طبيعة داخلية لا من تجربة عملية (لاحظ الإشارة هنا إلى الفطرة) . ويعتقد لايبنتز بأن الله أكمل كائن وموضوع كل الكمالات ، ويعرف الكمال بأنه " صفة بسيطة إيجابية ومطلقة تعبر دون حدود عن كل ما تعبر عنه " [٥٨] .

٣. ٤. ٢. الفلسفة الحسية (Empericism)

لقد رفض الحسيون العملية العقلية التأملية ، وأن الأفكار الفطرية هى مصدر المعرفة ، واستبدلوها بالتجربة اعتقادا منهم أن المعرفة مكتسبة وجزئية ومتغيرة ، مستندين على ما جاء به أرسطو بأنه لا يوجد فى العقل ما لم يكن قبلا فى الحواس . ولهذا يقول أصحاب هذه الفلسفة بأن الحواس والتجربة هما مصدر المعرفة . ولهذا كان منهجهم هو " **منهج إستقرائى : Deductive " لا " منهج إستنباطى : Inductive** " كما فى الفلسفة العقلية . **وأهم فلاسفة الفلسفة الحسية هم ؛ جون لوك ، وباركلى ، وديفيد هيوم** . وسوف نعرض باختصار إلى أهم آرائهم واتجاهاتهم الفلسفية فيما يلى .

جون لوك : John Locke (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ، فيلسوف إنجليزى ، تميزت فلسفته بأنها تجريبية ، وقال بأن المعرفة تأتى من " **الحس الذاتى : Self-perception** " ، وأن التجربة هى ينبوع جميع أفكارنا . ويرفض لوك الأفكار الفطرية ، ويرى أن العقل سلبى (Passive) ولا يلعب دورا نشيطا فى تكوين الأفكار ، لأن الأفكار تأتى للعقل وتفصح له عن الأشياء الخارجية بالحس . فمثلا رائحة الزهور تأتى لنا بحاسة الشم ، كما إن فكرة البياض تأتى لنا من خلال حاسة النظر [٥٩] . كما وأن هناك أفكار أخرى نستلهمها بواسطة أكثر من

---

[٥٨] وبديهى لم يذكر لنا لايبنتز ماهى الكمالات الإلهية التى يقول بها ، وبأنها " تعبر دون حدود عن كل ما تعبر عنه " ، ولا أدرى إن كان هذا يمثل تعريفا أم مجرد إنفعال ذاتى (أو فطرى) لما ينبغى أن يكون عليه الكمالات الإلهية ، لا يقدم شيئا يذكر عن هذه الكمالات . أنظر الملحق الأول عن الصفات أو الكمالات الإلهية ، التى يذكرها الله ــ سبحانه وتعالى ــ عن نفسه (هو محصيها) ، وكما تجىء بها الديانة الإسلامية .

[٥٩] فى الحقيقة ؛ نحن لا نستطيع أن نجعل " الحاسب الآلى " أو " الكمبيوتر " التعرف على أى شىء مهما صغر ، مالم يكن هذا الشئ قد تم وضعه مسبقا فى ذاكرة الحاسب . فإذا أردنا ــ مثلا ــ أن نجعل الكمبيوتر التعرف على طائرة ما ، فلا بد لنا من تزويد الكمبيوتر بصورة الطائرة ، أو بالمواصفات الخاصة بها حتى يمكن التعرف عليها عند إلتقاط صورتها بواسطة الرادار مثلا . وكذلك

حاسة مثل : الحركة والامتداد والشكل . واعتبر لوك أن اللون والطعم والرائحة والصوت هى " **كيفيات ثانية أو ثانوية : Secondary qualities** " ، منفصلة عن الجسم ومكانها خارجه . بينما الامتداد والشكل والحركة هى " **كيفيات أولية : Primary qualities** " غير منفصلة عن الجسم . وكما رأينا ؛ فقد سبق لوك فى هذا المذهب الحسى كل من **توما الأكويني ، وفرنسيس بيكون** متأثرين فى ذلك بفلسفة أرسطو ، كما أكدوا على أهمية المنهج الاستقرائى أو التجريبى . وليس هناك فى فلسفة لوك " **قوانين أخلاقية : Moral Rules** " ، فجميع مبادئنا الأخلاقية تنبع من خبرتنا الحسية . فالعدالة ــ مثلا ــ مستقاة من تجربتنا ، وهى أيضا مستنتجة من واقع خبراتنا . والخير لدى ــ لوك ــ هو ذلك الشىء الذى يزيد من متعة العقل أو الجسم ويبعد الألم ، بينما الشر هو ذلك الشىء الذى يسبب الألم ويبعد اللذة .

ثم نأتى إلى **جورج باركلى : George Berkleley** (١٦٨٥ - ١٧٥٣) ، وهو فيلسوف إيرلندى ، قال " **بعدم وجود العالم المادى : Matter is non - existence** " . وقال بأن ظواهر العالم المادى تخضع لظواهر العالم الذهنى ، فالمعرفة فى فلسفة **باركلى** لا ترجع إلى جوهر مادى بل ترجع إلى " **وجود روحى : Spiritual Being** " ، كما وإن الأشياء ليس لها وجود مستقل عن العقل ، ولا يوجد شئ إلا إذا كان مدركا بالذهن . فمثلا هو لا ينفى وجود الكرسى فى الغرفة طالما أنه لا يوجد من يراه ، فالشىء يوجد وإن لم ير ، لأن الله يراه . والله هو الذى يطبع أفكارا على عقل كل من يدخل الغرفة ليرى الكرسى . أى أنها أفكار في العقل الإلهي في الأصل ، فهى توجد لأن الله يراها ويدركها ثم يجعلنا نراها وندركها بعد ذلك .

ولهذا جاءت فلسفة باركلى مادية مثل فلسفة لوك ، ولكن الفرق أن لوك قال بوجود المادة مستقلة عن العقل ولهذا يراها العقل ، بينما قال باركلى بأن الوجود المادى قائم فى العقل الإلهى ، فهو الذى يرى المادة ويدركها أولا ، ثم يجعلنا نراها وندركها ثانيا . أو أن لوك قال برؤية المادة مباشرة ، بينما قال باركلى برؤية المادة من خلال الرؤية الإلهية لها . **وهو بهذه النظرة يصبح منهجه مثاليا** (أى الإيمان بوجود الله) ولكنه فى نفس الوقت تجريبى ، بمعنى أن الأشياء المطبوعة على الحواس ــ من قبل الله ــ هى الأشياء الحسية . ولهذا نرى باركلى قد جمع بين الفلسفة الحسية (مثل لوك وهيوم ، كما سنرى) وبين الفلسفة المثالية : **Idealism** .

إذا أردنا أن يتعرف الكمبيوتر على ذرات عنصر ما ، فإن علينا تزويدة بخصائص ومواصفات ذرات هذا العنصر حتى يستطيع التعرف على ذراته . وهكذا بالنسبة لأى شىء أخر ، وهذا ما يعنى أن المعرفة لابد وأن يكون أصلها عقليا وليست حسية ، وذلك بعد قيامنا ببناء أسلوب التعرف على الأشياء فى الحاسبات الآلية (أنظر كذلك الملحق الرابع من هذا الكتاب) .

وأخيرا نأتى إلى **ديفيد هيوم** : **David Hume** (١٧١١ - ١٧٧٦) ، الذى كان ينفى وجود الأفكار الفطرية المطلقة كطريق للمعرفة ، ويؤكد على أن المعرفة تأتى بطريق التجربة والملاحظة . ولهذا كان يرى أن المنهج التجريبى : **Experimental Method** (الذي طبق بنجاح فى العلوم الطبيعية) يمكن تطبيقة أيضا فى دراسة الإنسان .

وكان يرى أن طبيعة الإنسان دائما ثابتة ، ولهذا يؤدى فيها الدافع المعين إلى نوع معين من السلوك . ولو لم يكن سلوك الإنسان مطردا ــ إطراد الظواهر الطبيعية ــ لاستحال علينا أن نحكم على أحد . غير إنه لا يجوز أن نفترض أن هذا الاطراد فى أفعال الإنسان إطراد كامل ، فليس معني أن تتشابه الظروف أن تخلق دائما نفس السلوك ، لذا يجب علينا أن نعمل حسابا لتنوع الشخصيات الإنسانية فى رد فعلها تجاه المؤثرات البيئية . لإننا عندما نلاحظ سلوك الناس ، إنما نلاحظ تنوعا فى سلوكهم حتى فى الظروف المتشابهة . وبهذا فإننا ننتهى من ذلك إلى مجموعة مبادىء تجري على نسقها أفعال الناس ، بدل أن ننتهي إلى مبدأ واحد [٦٠] ، كما هو الحال فى القانون الطبيعي الذى ينطبق على الجمادات .

ويقول **هيوم** إن مبدأنا العام فى المعرفة الإنسانية كلها هو نوعان لا ثالث لهما ؛ فهى إما " **إنطباعات** " تقع على الحواس مباشرة ، أو " **أفكار** " تكون هى نفسها الانطباعات بعد أن تزول محدثاتها من أمام الحس ، فتبقى صورا ذهنية لا تختلف عن الانطباعات فى حالتها الأولى إلا من حيث درجة الوضوح . فالفكرة لا تختلف عن الانطباع الذى أحدثها إلا أنها تكون أقل وضوحا وأبهت لونا [٦١] .

ويرى هيوم أن العقيدة الدينية هى فرع من الغرائز (وليست غريزة أصلية) لتعدد شكل الديانات [٦٢] ، شأنها فى ذلك شأن الفضائل الأخلاقية كالعدالة والوفاء بالعهود وما إلى ذلك . وأن العقيدة مستمدة من العواطف الفطرية للإنسان . **وكان يرى وجود " الله " لا خلاف عليه ، ولكن المشكلة لديه هو مدى ما يعلمه الإنسان عن طبيعة الله وخصائصة** . وكان يقول بأنه

---

[٦٠] لم يقدم لنا هيوم شيئا يذكر عن هذه المبادىء ..!! التى يمكن أن تلقى الضوء على طبيعة الإنسان وماهيته . فلم يتجاوز فكره ترديد كلمات صياغية مختلفة لا تقدم ولا تؤخر ..!! مثل : إنطباعات ... رد فعل ... أفكار ... ألخ . وحتى عند تعريف هذه الكلمات بدقة كافية ، فإنها لن تعطينا أى دلالة على وجود الإنسان ومصيره ، كما لن تلقى أى ضوء على وجود الخالق وغاياته من خلقه للإنسان وللوجود .

[٦١] " نوابغ الفكر الغربى (٧) : ديفيد هيوم " ؛ د. زكى نجيب محمود ، دار المعارف . ص : ٩٨ / ١١٤ .

[٦٢] راجع الفصل الثانى (الدين وظاهرة التعدد) . راجع رأى هيوم عن وجود " الله " .

يمكن أن نهتدى إلى خصائص الله مستنتجة من خصائص الإنسان ، لوجود تشابه بينهما ، وعندئذ يكون الفرق في الجانبين في الكم وحده لا الكيف .

وعلى هذا الأساس ينكر هيوم موقف الملحد إنكارا تاما ، ذلك إذا ما أريد بالإلحاد الشك العقلى فى وجود " الله " ، لأن " الوجود الإلهى " ، كان يراه أمرا ناشئا عن الوجدانات الفطرية ، ولا شأن للتفكير العقلى به . وفى نفس الوقت كان يرفض هيوم أن يرتمى فى أحضان الإيمان الساذج ، ما دام العقل لا يستطيع أن يهدى الإنسان إلى شىء يطمئن إليه .

وكان يقول بأن الأساس الذى تقوم عليه صدق الديانة المسيحية أضعف وأوهى من الأساس الذى تقوم عليه صدق ما تدلنا عليه الحواس . فمعجزات المسيح مروية عن شهود أقدمين ليسوا ثقات ، هذا إلى جانب جهلهم ، لذلك فإن إحتمالات خداعهم ــ من جانب المسيح ــ تكون أكثر ترجيحا من حدوث المعجزة نفسها أمامهم [٦٣] .

٣. ٤. ٣. فلسفة التنوير (The Enlightenment)

وهى فلسفة توجه إهتمامها إلى المعرفة العلمية واكتشاف القوانين التى تحدد سلوك الإنسان . وقالوا بأن حقل العلوم التجريبية يمكن تطويره ليشمل العلوم الإنسانية بغية إصلاح المجتمع ، حيث اعتقدوا أن فى إصلاح المجتمع سعادة للفرد . وكان من بين برامج الإصلاح لديهم ، الإصلاح الدينى (Religious Reform) ، كما حاولوا فصل الأخلاق عن اللاهوت والميتافيزيقا . واعتبروا التطبيقات الكنسية خاطئة وقالوا بإصلاحها ، كما اعتقدوا فى أن الديانة الطبيعية (Natural Religion) هى الديانة الصحيحة ، وهى تعنى العبادة البسيطة لله [٦٤] . وتنقسم فلسفة التنوير إلى قسمين أساسين : هى **الفلسفة الرومانسية** التى تؤكد على دور الشعور فى المعرفة ، والفلسفة النفعية التى تقول بأن الأعمال تكون صالحة متى كانت نافعة . وسوف نعطى شرحا موجزا لكل منهما وأهم فلاسفتها فيما يلى .

---

[٦٣] المرجع السابق ؛ ص : ١٦٢ / ١٧٠ .

[٦٤] " المرجع فى الفكر الفلسفى " دكتورة نوال الصراف ؛ دار الفكر العربى . ص : ٢٠٠ . **وتعرف الديانة الطبيعية بإسم " مذهب الربوبية : Deism " : وهو المذهب الفكرى الذى يدعو إلى الإيمان بدين طبيعى مبنى على العقل لا الوحى ، حيث يقول هذا المذهب بأن الله قد خلق الكون وهو يجرى الآن بدون تدخل منه . تماما كما تقول أنت بأن صانع الساعة قد صنعها ، وهى تجرى الآن بدون الحاجة إليه بعد أن صنعها .**

[١] الفلسفة الرومانسية (Romanticism)

وتنسب هذه الفلسفة إلى **جان جاك روسو : Jean - Jacques Rousseau** (١٧١٢ - ١٧٧٨) . وتقول هذه الفلسفة بالحرية والمساواة ، وبأن الإنسان يولد حرا غير أنه فى كل مكان مقيد بسلاسل . والإنسان بطبيعته فاضل غير أن المدنية تسبب عدم مساواته ، والمجتمع ومؤسساته تجعله سيئا . وفى كتابه " **العقد الإجتماعى : Social Contract** " [٦٥] دعى إلى الديموقراطية ، وإنكار حق الملوك الإلهى . وقال بأن الأفراد أحرار فى دولة الطبيعة ، وكيف أن النظام الإجتماعى قد قضى على حرية الإنسان البدائى . أما فى كتابه " **الأميل : Emile** " فقد بحث فيه روسو التربية طبقا لمبادىء الطبيعة مما أثار سخط الكنيسة ، فاضطر إلى اللجوء إلى سويسرا هربا من الكنيسة .

ويعتقد روسو أن الشعور سابق للذكاء ، وما نشعر به بأنه صائب فهو صائب ، وما نشعر به بأنه خاطىء فهو خاطىء ، وهذه هى أسس المعرفة لدى روسو . كما كان يقول بأن أساس عواطفنا التى تولد معنا وتبقى معنا هى " **حب البقاء** " . وأن هذا الشعور بدائي وغريزي ويسبق الانعكاس أو الاستجابة . ولذلك فإن شعور " **حب الـذات** " عند الطفل هو الذى ينبثق منه حب الغير . والأخلاق تبنى على هذه المشاعر الطبيعية . وأخلاقنا فى حياتنا تعتمد على غرائزنا وشعورنا . كمـا وأن امتداد حبنا الذاتي للغير يتحول إلى فضيلة ، والفضيلة تجد جذورها فى قلب كل واحد منا .

[٢] الفلسفة النفعية أو المنفعية (Utilitarianism)

يعتبر **جيرمى بنثام : Germey Bentham** (١٧٤٨ - ١٨٣٢) مؤسس هذه الفلسفة ، وهى تعرف أيضا **بالفلسفة البنثامية (Benthamism)** ، أو مبدأ المنفعة لدى بنثام . وهو يعنى أن كل فعل يعتبر أخلاقيا مادام ينتج سعادة . كما وأن تحقيق أعظم الخير لأكبر عدد من

---

[٦٥] وهو عقد وهمى بين المحكومين وحكامهم . وتقول نظرية العقد الإجتماعى إن الناس عاشوا فى العصور البدائية فى حالة طبيعية فوضوية ، ثم أنشأوا المجتمعات والحكومات بعد ذلك ، من طريق تخليهم عن حرياتهم الطبيعية لسلطة حاكمة ، لقاء الأمن والنظام اللذين تعهدت هذه السلطة بتوفيرهما لهم . وعلى الرغم من أن نظريات العقد الإجتماعى يمكن إرجاعها إلى اليونان القدماء ، فإنها لم ترج إلا فى العقدين السابع عشر والثامن عشر ، حين ارتبطت بأسماء توماس هوبز ، وجون لوك ، وجان جاك روسو . وقد اختلفت نظريات العقد الاجتماعي تبعا لأغراضها . فبعض هذه النظريات أعد لتبرير سلطة الحاكم (وهذا ما فعله هوبز) ، وبعضها أعد لحماية المحكومين من استبداد الحاكم (وهذا ما فعله لوك ، وروسو) . [عن موسوعة المورد الإلكترونية لسنة ١٩٩٥]

الناس يجب أن يكون هدف السلوك البشرى . ولتوضيح منهاج بنثام الفلسفى المبنى على المبدأ النفعي ، نشير إلى المثال الذى يضربه لنا فى شأن محاولته للانتهاء إلى قرار حول أخذ ابن أخيه إلى السيرك ، أو أن يمضى أمسيته فى البيت مع كتاباته ؟

وفى هذا المثال يقول **بنثام** : إنه يعرف أن السيرك ممل بالنسبة له ، وهذا يسبب له ألم بقدر ٥ وحدات ، ومتعة أو سعادة بقدر ٢ **وحدة** (وحدتين) . بينما الذهاب إلى السيرك يعنى ١٠ وحدات سعادة بالنسبة إلى ابن أخيه ، فتكون النتيجة النهائية هى (٢ - ٥ + ١٠ = ٧ وحدة متعة) . وبذلك يمكن أن يصل إلى أن قـــرار الذهاب إلى السيرك يكون قرارا صائب لأن نتيجته متعة أكثر .

وبديهى من السهل الحكم بعدم واقعية هذه الفلسفة ، لأنها تعتمد على وحدات لا يمكن قياسها أو تحديدها أو حتى تعريفها على نحو معقول . فمن منا يستطيع أن يقوم بتعريف وحدة للألم ، ووحدة للمتعة ..!!

وإذا كان الذهاب إلى السيرك يسبب خمس وحدات ألم لدى " **بنثام** " . فقد يكون الذهاب إلى السيرك لدى شخص آخر غير بنثام ، يوازى مائة وحدة متعة بدلا من الخمس وحدات ألم هذه . فبديهى إن مثل هذه الوحدات لا يمكن تعريفها من جانب ، كما وإنها نسبية من جانب آخر ، إذ تتوقف هذه الوحدات على الفرد ذاته وعلى اتجاهاته الفكرية ، وبالتالي فإن معيارها ــ أى معيار وحدات المتعة والألم ــ هو معيار غير مطلق ..!!

وهذه الفلسفة تشبه إلى حد بعيد القول بأن " **الأخلاق تخضع لمعايير المنفعه الفردية** " . وقد سبق ، وأن بينا فى الفصل الثانى ، بأن القانون النفعي السائد فى عالم الجريمة هو " اللاأخلاق أو عدم التقيد بالأخلاق " هى المعايير النفعية التى تحكم هذا العالم . فمثل هذه الأمور هى أمور نسبية بحته إلى حد بعيد .

وفلسفة **بنثام** فى السياسة والقانون ما هى إلا تطبيق لمبدئه الفلسفى وهو أن السعادة العامة ومصلحة المجتمع عموما ؛ هى نتيجة منفعية حسابية لمجموعة المتع والآلام الفردية . وبهذا لم تقدم هذه الفلسفة شيئا عن الإنسان أو عن الدين أو عن الإله .

٣. ٤. ٤. الفلسفة الكانطية (Kantianism)

وهى الفلسفة التى تقول بأن المعرفة تنبع من مصدرين ؛ هما الفهم (**Understanding**) ويمثل التفكير الميتافيزيقى ، والحس (**Sensibility**) أو الواقع (**Actuality**) ويمثل التفكير العلمى . وبالجمع ــ فقط ــ بين التفكيرين الميتافيزيقى والعلمى ، يمكن الحصول على المعرفة المتكاملة . وتنسب هذه الفلسفة إلى مؤسسها **عمانويل كانط Immanuel Kant** (١٧٢٤ - ١٨٠٤) . ويقول كانط بأن المعرفة الميتافيزيقية يمكن الحصول عليها بواسطة ما يسمية بالسلفية أو السبقية (**A priory**) أو البرهان الأولي المجرد ، أو البرهان القبلى . بينما يمكن الحصول على المعرفة العلمية بواسطة البرهان الحسي الواقعي ، وهو برهان لاحق (**A posteriory**) . ويقول بأن الوعي يفكر والحس يعطي موضوع الفكر ، فالمعرفتان متداخلتان ووحدتهما تعطينا المعرفة المتكاملة . وهكذا تميزت فلسفة **كانط** بالجمع بين الفلسفتين العقلية والحسية أو التفكيرين الميتافيزيقى والعلمى .

٣. ٤. ٥. الفلسفة المثالية : Idealism (أو الفلسفة الهيجيلية : Hegelianism)

وتتميز الفلسفة المثالية بمنهجها الذى يفسر الحقيقة بالروح أو العقل مستندا إلى مبادىء ميتافيزيقية . ونواة هذا المنهج يرجع إلى أفلاطون ، الذى كان يؤكد على أن العقل هو مصدر الحقيقة المطلقة . وقد عرفت فلسفة أفلاطون نوعين من الوجود ؛ العالم الطبيعى ، أو عالم الظواهر أو الظاهرات (**The Phenomenal World**) وهو العالم الذى يعرف من الحواس والتجارب ، والعالم الحقيقى (**The Real World**) وهو العالم المثالى الذى يعرف من خلال العقل . وفى العصور الحديثة ظهرت الفلسفة المثالية بوضوح وتطورت أثر الفلسفة الكانطية ، كما سبق وأن بينا ، حيث أعطى كانط فى فلسفته اهتماما لكلا من التفكير الميتافيزيقي (العقلي) والتفكير العلمي (التجريبي) على حد سواء .

ثم جاء الفيلسوف الألمانى ؛ **جورج ويلهلم فردريك هيجل : George Wilhelm Friedrich Hegel** (١٧٧٠ - ١٨٣١) (أهم فلاسفة الألمان وأعظم فلاسفة الغرب [٦٦]) ، ليتبنى الفلسفة المثالية ، وكان هدف هيجل هو البحث عن الحقيقة المطلقة ، وهى ليست الحقيقة

---

[٦٦] **ولد هيجل فى شتوتجارت (Stuttgart) بألمانيا ، والتحق بجامعة تيوبجين (Tubigen) ، وعندما تخرج منها عام ١٧٩٣ ، بينت شهادته حسن سلوكه ومعرفته الجيدة باللاهوت مع الإشارة إلى عدم مقدرته على إستيعاب الفلسفة . وعكس شهادته التى تخرج بها من الجامعة أصبح هيجل أعظم فلاسفة الغرب .**

التى تبحث عنها العلوم الطبيعية . ويقول هيجل ، بأن المعرفة تكمن فى ذاتنا ووعينا ، وهى معيارنا . ففى داخل وعينا تبدو ماهية الحقيقة ومعيارها والتى نقيس بها معرفتنا . إن اختبارنا لمعرفة الحقيقة يتكون من مدى **مطابقة الفكر** : للشيء أو الوجود [٦٧] . فالوعي هو وعي لذاته من ناحية ، ووعي للشيء من ناحية أخرى ، وبما إن الإثنين ينتميان إلى الوعي ذاته ، فإن الوعي هو الذي يقرر إن كانت معرفتنا بالشيء تطابق الشيء ذاته . وبذلك تصبح الحقيقة هى الحقيقة التى تظهر للوعى . وكان **هيجل** يقول بأن العالم الملاحظ تنبثق حقيقته عن قوة خارقة أو منبع روحي متعال (**Transcendental**) [٦٨] .

ويقول ج . هـ . **ستيرلنج** ، فى كتابه " **سر هيجل** " الذى نشر فى عام ١٨٦٥ :

" أن **هيجل** ليس له موضوع سوى إعادة الإيمان بالله ، والإيمان بخلود الروح وحرية الإرادة . فالفلسفة المثالية هى محاولة إعادة الإيمان بتدعيم القيم الإنسانية التى هددتها المكتشفات العلمية بشكل ظاهر [٦٩] "

ويستنبط **هيجل** قانونا كليا للوجود يقول فيه بأن : [كل شيء يوجد ويتم فى إطار عملية التطور لروح العالم فى صورة الأضداد ، وكل شيء يعتبر " لحظة " فى هذه العملية ، وكل الأضداد تتقابل فى شيء شامل لها ؛ وفى هذا الشيء الشامل ترتفع (أو تجتمع) تلك الأضداد مرة

---

[٦٧] **لقد أدرك هيجل بهذا فطرية المعرفة فى العقل البشرى ، كما جاء بها القرآن المجيد ، أنظر الملحق الرابع من هذا الكتاب ، حول قصة خلق الإنسان .**

[٦٨] **بديهى أن هيجل يعنى بهذا وجود " الله " أو " الخالق " سبحانه وتعالى . وأن هذا الخالق ، هو مصدر وأصل كل معرفة عند الإنسان . وبديهى لم يتجاوز هذا الفكر الأربع كلمات التالية من القرآن المجيد ؛ كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. ﴾ (البقرة : ٣١) . أنظر كذلك الملحق الرابع من هذا الكتاب (حول قصة خلق الإنسان ، والنظرية الداروينية) .**

[٦٩] " **فلسفة برتراند رسل** " د. محمد مهران ؛ دار المعارف . ص : ١٩ وما بعدها . [وأود أن أشير هنا إلى أن المكتشفات الحديثة تهدد الإيمان بالله ، إذا كان الفكر الدينى هو فكر أسطورى ، كما هو الحال فى الديانتين اليهودية والمسيحية . وبديهى إعادة الإيمان بالله ــ على هذا النحو ــ معناه العودة إلى الوثنيات الفكرية عن الدين ، ولهذا فقد فقدت المثالية الألمانية (أى الهيجيلية) قوتها وتأثيرها فى العشرينات من هذا القرن ، بعد أن تم إكشاف ماهيتها .. كما لم يكن لديها ما تقوله عن الدين] .

أخرى [٧٠] . وبهذا ينتهى هيجل إلى الجدل الثلاثى الذى يأخذ صورة : (١) الدعوى : وهى فكرة الوجود ؛ (٢) نقيض الدعوى : وهى فكرة العدم ؛ (٣) والجامع للدعوى ونقيضة : هى فكرة الصيرورة .

وقد إلتقط كارل ماركس هذه الثلاثية ــ فيما بعد ــ وقال بأن الدعوى هى المجتمع الرأس مالي ، ونقيض الدعوى هى طبقة البروليتاريا (Proletariate) أى طبقة العمال أو الكادحين ، أما الصيرورة أو المركب الجامع للدعوى ونقيضة فهو المجتمع الشيوعي اللاطبقي [٧١] .

٣. ٤. ٦. الفلسفة المادية (Materialism)

وهى فلسفة واقعية لا ميتافيزيقية ، نشأت كرد فعل أو ثورة على الفلسفة المثالية ، أو الفلسفة الهيجلية ، وهى تنظر إلى الوجود والإنسان نظرة واقعية لا تأملية أو روحية . وتعتبر المادة أساس المعرفة ، وأن مظاهر الوجود على إختلاف أنواعها تعتبر تطورا متصلا لقوى مادية [٧٢] ، وكل ما هو عقلى يتطور عما هو مادى ، ولا بد وأن يفسر على أساس واقعى . وأهم فلاسفة هذه الفلسفة المادية هو كارل ماركس : Karl Marx (١٨١٨ - ١٨٨٣) .

---

[٧٠] لم يتجاوز هذا الفكر التعبير الحسابى البسيط : ١ + (-١) = صفر . فالواحد الأول (١) فى هذه المعادلة هو الوجود ، و الحد الثانى (-١) هو النقيض ، والصفر فى الطرف الشمال من المعادلة (= صفر) هو الصيرورة .

[٧١] أنظر التذييل السابق لبيان نفس المعنى . فالواحد هو المجتمع الرأسمالى ، و (-١) هو نقيضة أى مجتمع الكادحين (البروليتاريا) ، والصفر هو المجتمع الشيوعى أى المجتمع اللاطبقى .

[٧٢] لاحظ القفزة الواسعة فى هذا الفكر المادى ، والذى بدأ من وجود الكون وماديته والإنسان بشكلهما الراهن . وتعامى هذا الفكر عما هو سابق على هذا ..!!! فقد أغفل هذا الفكر الموجد لهذا الكون ، والموجد لمادته ، والموجد للقوانين المادية التى تحكمه ، كما أغفل الموجد لهذا الإنسان بوعيه وعقله وإدراكاته وإرادته ، والموجد للجانب الروحى فيه .. والموجد للعقل الإنسانى والمقرر بتطوره ، كما أغفل أيضا عددا لانهائيا من الأمثلة التى تركت مفتوحة وبلا أجوبة فى هذه الفلسفة . وبديهى البدائل الدينية لدى الغرب ، هى المسيحية على النحو السابق صياغته فى الباب السابق ، وهذا مالا يمكن احتماله ..!!

ومن أمثلة الفلسفة المادية : **الفلسفة الماركسية : Marxism** ، أو **الفلسفة المادية الجدلية : Dialectical Materialism** [٧٣] . ثم إنقسمت الماركسية فيما بعد إلى **إشتراكية : Socialist** ، **وشيوعية : Communism** .

وترجع جذور الفلسفة المادية الماركسية ــ فى الواقع ــ إلى بعض الفلاسفة المتطرفين من الجناح اليسارى الهيجيلى الذين لم يهتموا بتفسير هيجل المثالى ، بل اهتموا فقط باستعمال بعض أفكاره ليحولوا المثالية الميتافيزيقية إلى فلسفة مادية . ومن أمثلة هؤلاء الفلاسفة نذكر **فيارباخ : Feuerbach** (١٨٠٤ - ١٨٧٢) ، **وأرنولد روج : Arnold Ruge** (١٨٠٢ - ١٨٨٠) .

وقد هاجم **كارل ماركس** الفلسفات المثالية غير الواقعية ، واتهمها بأنها فلسفات لا تغنى ولا تسمن من جوع . ووصف أصحابها بأنهم فئة من الفلاسفة لم تستطع تغيير الواقع وإصلاحة ، فوضعت أحلامها وأمانيها فى هذه الفلسفات . وقال ماركس : " **لقد اقتصر الفلاسفة على تفسير العالم فى أنحاء شتى ، ولكن المهمة الحقيقية للفيلسوف هى تغيير هذا العالم** " . ويتضح من هــذا أن ماركس كان ثوريا أكثر منه فيلسوفا ، فالفلسفة لديه ليست إلا وسيلة لاتجاهاته السياسية .

وكان ماركس يهدف من هذا الهجوم إلى نقد الأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة فى وقته ، باعتبار أن نقد الفلسفة القائمة هى طريقة غير مباشرة لنقد الواقع . وطالب ماركس بأن تكون الفلسفة تعبيرا عن مشكلات الناس وآلامهم كما تظهر فى الصراع بين القوى المستغلة وقوى الشعب العاملة ، أى تعبر الفلسفة عن العمل والحياة التى يعيشها الإنسان والمشكلات التى يتعرض لها . **وهاجم كارل ماركس الدين ، واتهمه بأنه : " أفيون الشعوب "** .

---

[٧٣] يوجد من يعتبر المادية الجدلية أحد الأساسين الفلسفيين اللذين تقوم عليهما الفلسفة الماركسية وليست الفلسفة الماركسية نفسها ، والأساس الآخر هو الفلسفة الهيجيلية . وليس هذا مهما فى حد ذاته ؛ إذ أن الخلاف بين الماركسية والمادية الجدلية يأتى فى الشكل النهائى فى التطبيق ، بينما الأساس الفكرى لهما فهو واحد . حيث تبين موسوعة : كتاب العالم (World Book Encyclopedia, Vol. ١٣, p. ٢٥٢, ١٩٩٥) ، أن المادية الجدلية قد ظهرت فى نهاية القرن التاسع عشر مع أعمال كل من " كارل ماركس " وعالم الإجتماع الألمانى " فريدريك إنجلز : Friedrich Engels " (١٨٢٠ ــ ١٨٩٥) ، وهما مؤسسى الفلسفة الماركسية ، واللذين صاغا معا البيان الشيوعى .

وانتهى ماركس إلى نظريته التى تقول : بأن المجتمع البشرى يتطور بسلسلة من التناقضات (متأثرا فى ذلك بالفلسفة الهيجلية على النحو السابق بيانه) وقال بأن المجتمع الرأسمالي (أي الدعوى : Thesis) ، يحدث نقيضة (أى نقيض الدعوى : Antethesis) وهو (البروليتاريا : Proletariat) ــ وهى طبقة العمال أو الكادحين ــ التى تنقض هذه بدورها إلى تقويض الرأسمالية [٧٤] . ثم تنتهى الدعوى ونقيضها بالمركب الجامع لهما وهو المجتمع الشيوعي اللاطبقي . **وهذا ما يعرف بالفلسفة الماركسية ، وأحيانا باسم الفلسفة الجدلية المادية** ، وقد انقسمت فيما بعد إلى : **الإشتراكية والشيوعية** .

فالاشتراكية (Socialism) : فى الفلسفة الماركسية ، هي المرحلة الانتقالية بين الرأسمالية والشيوعية . حيث توزع فيها السلع والرواتب توزيعا غير متكافىء وفقا لعمل الفرد . وفى هذا النظام ــ الاجتماعي ــ تختفى الملكيـــة الشخصية ، وتمتلك الدولة فيه وسائل الإنتاج وتهيمن عليه .

أما الشيوعية (Communism) : فهى تعتبر المرحلة الأخيرة من مراحل تطور المجتمع فى النظرية الماركسية ، حيث تضمحل فيها الدولة ، وتوزع السلع الاقتصادية توزيعا متساويا . ويعلن أصحاب هذا المذهب عن سعيهم لإقامة مجتمع بلا دولة . والشيوعية تدعو إلى إلغاء الملكية الخاصة ، وإحلال الملكية الجماعية محلها .

أما الشيوعية الروسية ؛ فهو مذهب مبنى على أساس الإشتراكية الماركسية ، وعلى أساس **الماركسية اللينينية** [٧٥] ، وهذا المذهب يمثل الأيديولوجية الرسمية للإتحاد السوفيتى سابقا . وفيه يسيطر بموجبه حزب واحد على وسائل الإنتاج المملوكة من قبل الدولة . **وعندما إنهار هذا النظام تبين بأن أعضاء الحزب الواحد قد نهبوا كل شىء ، ولم يتركوا شيئا للشعب .**

---

[٧٤] **والتجربة البشرية التطبيقية ، تشير إلى خطأ هذه النظرية أو المنظور الماركسى ، فقد إنهار الإتحاد السوفيتى ، أحد تطبيقات الفلسفة الماركسية ، بينما المجتمع الرأسمالى مازال قائما كما هو .**

[٧٥] **هى الفلسفة الماركسية بعد أن طعمها لينين بنظريات جديدة فى موضوع الحزب ، والقومية ، وثورة البروليتاريا ، والإستعمار ، وحركات التحرر الوطنى . وكان كارل ماركس قد تنبأ بأن الثورة البروليتارية سوف تنشب ــ أول ما تنشب ــ فى الدول الأكثر تقدما فى ميدان الصناعة ، فجاء لينين وفند هذه النبوءة مؤكدا أن شرارة تلك الثورة سوف تندلع من البلدان الأكثر تخلفا ، أى عكس ما قال به ماركس .**

[ملحوظة : لا أحد يعرف بالضبط كم عدد القتلى الذين قتلهم ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣) إبان فترة حكمة للإتحاد السوفيتى (١٩٤١- ١٩٥٣) ، ولكن الذى لا خلاف عليه هو أن عدد القتلى يقربون من عشرين مليونا . ويعتبر ستالين ــ دكتاتور الإتحاد السوفيتى سابقا ــ (وأسمه الأصلى يوسف فيسرابوفتش جوجا شفيلى ، ومحتمل أن يكون يهودي الأصل) أحد أئمة الحزب الشيوعى ، وإليه يرجع الفضل فى نشر الشيوعية الدولية . وهو يعتبر أيضا أحد العبقريات الشريرة فى التاريخ لحجم الجرائم الهائل التى إرتكبها فى حق الشعب السوفيتى . وكما هو معروف ، أنه لا وجود للحرية الفردية أو الديمقراطية فى دستور الإتحاد السوفيتى سابقا] .

٣. ٥. الفلسفة المعاصرة (Contemporary Philosophy)

وتشمل الفلسفات المعاصرة ؛ الحركات الفلسفية الأوربية والأمريكية وتطورها من نهاية القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين وحتى وقتنا الحاضر . ففى الواقع ؛ بعد انتشار الفلسفة المادية الماركسية كان هناك نداء بالعودة إلى الفلسفة الكانطية التى تقول بضرورة اعتبار التفكيرين الروحي والمادي معا . وقد أدى ذلك إلى ظهور **الحركة الكانطية الجديدة ، أو الفلسفة الكانطية المحدثة (Neo-Kantian Philosophy)** ، والتى تهدف إلى تجديد فكر كانط مع إدخال بعض التعديلات عليه للتوحيد بين التفكيرين الميتافيزيقى والعلمى أو التوحيد بين العقل الخالص والعقل العملى أو التجريبي مع تجنب المبالغة فى التفكير النظرى أو التحيز للتفكير العلمى [٧٦] . ومن ممثلى هذه الحركة **هيرمان كوهين : Herman Cohen** (١٨٤٢ - ١٩١٨) ، و **هنرى بيرجسون : Henri Bergson** (١٨٥٩ - ١٩٤١) . وقد إتجه **كوهين** مع آخرين معه ، أمثال **بول ناتروب : Paul Natrop** (١٨٥٤ - ١٩٢٤) ، إلى المدرسة الماربارغية (**Marburg School**) وأصبحوا من زعمائها . وهى المدرسة التى تقول بأن المعرفة هى " معرفة قبلية : **A Prior** " ، أو المعرفة السابقة [٧٧] ، وترفض نظرية معرفة الأشياء فى ذاتها ، ولا تعتقد أنه يوجد حقيقة غير تلك الحقيقة التى نعرفها بالفكر . وهذا ينطبق على معرفة الذات والشيء والله [٧٨] . أما **هنرى بيرجسون** (وهو من أسرة يهودية قدمت إلى

---

[٧٦] لم يتجاوز هذا الفكر ، فكر الأفلاطونية المحدثة إلا بقليل . فالإنسان يدور فى فلك المعرفة العقلية ، أو المعرفة العلمية ، أو الجمع بينهما ؛ ولكن بظهورات مختلفة ، وفى كل مرة يعتقد الفيلسوف أنه يأتى بجديد ، وما هو بجديد !!

[٧٧] عودة مرة أخرى إلى الفكر الهيجلى ، والذى يدور حول المعرفة الفطرية ، والذى لم يتجاوز عن تفسير أربع كلمات فقط من كلمات القرآن المجيد فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. ﴾ (البقرة : ٣١) . أنظر الملحق الرابع من هذا الكتاب .

[٧٨] ولم تقدم هذه الفلسفة شيئا يذكر عن " الله " ، بإستثناء الفطرة ، أو الإدراك بوجوده .

فرنسا) ، فقد تميزت فلسفته بالثنائية التى تؤكد على ثنائية الروح والجسم ، وبمحاولة الجمع بينهما بطريق الفعل الإنسانى (Human Action) . وقيل (حسب وصيته التى أذاعتها زوجته عقب وفاته والمؤرخة فى ٢٨ فبراير ١٩٣٨) أنه تمنى لو أن قسيسا كاثوليكيا ــ وليس بروتستنتينيا ــ يسير فى جنازته ويصلى على جثمانه ، ولكنه لم يعتنق المسيحية خوفا من الاضطهاد [٧٩] .

وقد مهدت الفلسفة الكانطية الجديدة إلى ظهور الفلسفات المعاصرة ، وأهمها : فلسفة الظاهرات (Phenomenology) والفلسفة الوجودية (Existentialism) ، والفلسفة اللغوية (Linguistic Philosophy) والفلسفة الوضعية (Positivism) فى أوربا ؛ والفلسفة البراجماتية (Pragmatism) فى أمريكا .

٣. ٥. ١. فلسفة الظاهرات (Phenomenology)

وتنسب إلى **إدموند هسرل : Edmond Husserl** (١٨٥٩ – ١٩٣٨) ، وهو الذى أطلق هذا الإسم عليها [٨٠] . ويحسب على هذه الفلسفة أيضا **فرانز برينتانو : Franz Brentano** (١٨٣٨ – ١٩١٧) الذى تأثر به هسرل ؛ كما كان **لهسرل** نفسه تلاميذ نابهون أبرزهم **مارتن هيدجر** (١٨٨٩ – ١٩٧٦) ، **وماكس شلر** (١٨٧٤ – ١٩٢٨) **ونيقولاى هارتمان** (١٨٨٢ – ؟) .

وقد هدف **هسرل** إلى تأسيس فلسفة تبنى على أسس مطلقة (**Absolute Foundations**) . ويبدأ منهج هسرل بالمباشر (**Immediate**) ، ولكن ما هو المباشر ؟ إنه ليس العالم المحسوس كما عند التجريبيين والذى تبدأ فيه المعرفة بالتجربة ، كما إنه ليس بالعالم العقلى كما هو عند العقليين والذى تبدأ فيه المعرفة بالمسلمات . بل يبدأ هسرل بموضوع الوعى

---

[٧٩] " تاريخ الفلسفة الحديثة " يوسف كرم ، دار المعارف . ص : ٤٥٠ .

[٨٠] ورد لفظ : " الظاهرات " ؛ عند الألمانى لمبرت فى كتابه " الأورجانون الجديد " (١٧٦٤) للدلالة على نظرية الظواهر الأساسية للمعرفة التجريبية ؛ وعند كانط للدلالة على نفس المعنى ولكن فى حدود أضيق فى كتابة "ميتافيزيقا الطبيعة " (١٧٨٦) ؛ وعند هيجل فى " فينومنولوجيا الروح " (١٨٠٧) للدلالة على المراحل التى يمر بها الإنسان حتى يصل إلى الشعور بالروح ؛ وعند هاملتون فى " دروس فى الميتافيزيقا " (١٨٥٨) للدلالة على فرع من " علم الفكر" وهو الذى يلاحظ مختلف الظواهر الفكرية ويعممها . [" تاريخ الفلسفة الحديثة " ، يوسف كرم ، دار المعارف . ص : ٤٦١]

(Consciousness) المستقل ، فهو لا يهتم إلا بما يبدو للوعى . وهذا يؤدى إلى اعتبار العالم المحيط بنا ظاهرة وجود ، وليس عالما موجودا .

وبهذا نرى أن منهاج الظاهرات لا يأخذ بالفروض أو المسلمات بل يأخذ بالوعى . وبهذا تبدأ المعرفة فى هذه الفلسفة بـــ " **الماهيات : The Essenceses** " بخصائصها الثابتة ، لا بالوجود . وبهذا المعنى يمكن تأسيس فلسفة لها نفس معنى العلوم والرياضيات . وليس مجرد فلسفة ذات آراء مسبقة لا مسوغ لها .

ويضع **هسرل** مبدأين أساسيين أحدهما سلبى والآخر إيجابى . المبدأ السلبى هو أنه " يجب التحرر من كل رأى سابق ، باعتبار أن ما ليس متبرهنا ببرهان ضرورى فلا قيمة له " . أما المبدأ الإيجابى يقول بأنه " يجب الذهاب إلى ماهية الأشياء نفسها " ، أى إلى الأشياء الظاهرة فى الشعور ظهورا بينا ، مثل اللون الأزرق أو الأحمر أو الصوت ... وما إلى ذلك من ماهيات ثابته ومدركة بحدس خاص . وبهذا تأخذ هذه الفلسفة على عاتقها إعادة وصف الظواهر بكل دقة وترتيبها بإحكام ، وخصوصا المعانى الأساسية فى العلوم ، بغية توضيحها وتعريفها .

ويقول **هسرل** إن فلسفة الظاهرات تختلف عن الفلسفة الديكارتية إلا أنها فى الوقت نفسه تعتبر إمتدادا لها ، إذ أنها تبعد عن كل ميتافيزيقى ساذج ، غير أنها لا تستبعد الميتافيزيقا نفسها . فيقول إن ديكارت كان فى حالة من الشك الكلى فى الوجود ، بينما نحن لا نرتاب فى الوجود ولا ننكر العالم الخارجى ... بل نطلب من العقل أن " **يضع بين قوسين** " الوجود الواقعى للأشياء بصفة مؤقته ، حتى يتاح لنا تناول الموضوع بريئا من كل واسطة مشوهة للحقيقة ، وبالتالى يمكن أن ننظر فيه بنظرة صافية خالية من الشوائب ، وبذلك يمكن حصر الخصائص الجوهرية لهذه الأشياء .

ويقول **هسرل** أنه بعد الإنتهاء من عملية التجريد أو الإختزال للصفات الظاهرية ، فإننا نصل إلى الأنا المفكر (**The Transcendental Ego**) أو الشعور النقى (**The Pure Consciousness**) ، الذى يبقى فى الوجود حتى وإن تهدم العالم كله . وبهذا نرى أن فلسفة الظاهرات لم تتجاوز فى فكرها عن إدراك الفطرة [٨١] .

---

[٨١] **راجع الكلمات الاثنى عشر السابقة التى قال بها القرآن المجيد فى بند ٥ التالي ؛ ص : ٥٧٨ .**

ولنترك فلاسفة الظاهرات ليقوموا بإعادة توصيف الظواهر وتصنيفها وتدقيقها لنا [٨٢] .. ثم يقومون بإعادة كتابة ما نملك ، فهم يبدأون بما نملك (من علم) .. وبديهى سوف ينتهون إلى ما نملك (من علم) ..!! وهم لا يدركون أنهم لا يتقدمون بنا ولا بالعلم ، حتى خطوة واحدة للأمام ..!!

٣. ٥. ٢. الفلسفة الوجودية (Existentialism)

ترجع جذور هذه الفلسفة إلى **سورين كيركيجارد : Soren Kierkegard** (١٨١٣ - ١٨٥٥) ، وهو فيلسوف **ولاهوتى دانمركى فقد الثقة بالكنيسة فهجرها كما هجر الجامعة** ، وقال بأن المسيحية عثرة (Offense) أمام العقل ، ونحن لا نستطيع الإحاطة بها إلا بفعل للإرادة يتخطى العقل ، وتلك هى قفزة الإيمان . **كما قال كيركيجارد بأن الديانة المسيحية عبث من العبث ، لأنه ليس ميسورا لأى فرد أن يفهمها ويبررها وفقا لمبادئها التقليدية** [٨٣] .

وكيركيجارد هو أول من إستخدم لفظ " **عبث : Absurd** " ، واضعا بذلك أساس " **الفلسفة العبثية : Absurdism** " ؛ **وهى الفلسفة التى تقول بأن الإنسان موجود فى عالم لاعقلانى خالى من المعنى** (وذلك كناتج طبيعى من الفكر اليهودى/المسيحى) ؛ وبأن محاولات الإنسان التى يقوم بها إلتماسا للنظام أو بحثا عنه تجعله فى صراع مع عـــالمه هذا . كما نقد كيركيجارد مبدأ الظاهرات ، وأسس " **فلسفته العبثية** " هذه التى تعتبر أساس الوجودية ، والتى تقول بأن " **الوجود هو الذى يسبق الماهية :Existence precedes essence** " ، وليس " **الماهية هى التى تسبق الوجود : Essence preceds existence** " (أنظر تذييل ٤٥ السابق) ، كما تقول بهذا **فلسفة الظاهرات** ، ومن هنا جاء اسم **الوجودية** .

ثم يأتى بعد كيركيجارد ، **كارل يسبرز : Karl Jaspers** (١٨٨٣ - ١٩٦٩) الذى يعتبر مهندس الوجودية ، وأول من إستخدم مصطلح وجودى (Existentialist) . وقد إهتم يسبرز بتحليل نظرة الإنسان تجاه العالم ، والقرارت التى يأخذها إزاء المواقف التى لابد من مواجهتها مثل الموت والشعور بالذنب والتغيير ... وفلسفته لا تعتبر ميتافيزيقية أو علمية صرفة بل هى

---

[٨٢] من بعض ما ترك هسرل ؛ مجموعة من الملزمات المكتوبة تقارب (٤٥٠٠٠) صفحة ، وقد تم نقلها مع مكتبته إلى أرشيف هسرل فى جامعة لوفين فى بلجيكا (Louvin in Belgium) .
[" المرجع فى الفكر الفلسفى " ، د. نوال الصراف الصايغ ، دار الفكر العربى ، ص : ٢٣٤]

[٨٣] " موسوعة المورد الحديثة لسنة ١٩٩٥ "

وصف منظم للوجود الإنسانى من حيث الوعى والتجربة مع إهتمام بإنسان اليوم . وتبدو أهمية التجربة فى منهاج يسبرز ، فى فلسفته عن الأخلاق ، فى أنها تركز على القوة الكامنة لفردية الفرد الحرة وإختياره الحر .

ومن الفلاسفة الوجوديين كذلك **مارتين هيديجر : Martin Heidegger** (١٨٨٩ - ١٩٧٦) ، وهو أكثر الفلاسفة تمثيلا للفلسفة الوجودية فى ألمانيا . ومعرفة الوجود هى مشكلة الفلسفة لدى هيديجر . فالحقيقة لديه هى إكتشاف الوجود . ولا يأخذ هيديجر بالمنهج العقلى أو المنهج الحسى بل بالوجود الكلى . فالمعرفة لديه ليست تجربة عقلية أو تجربة حسية بل هى معرفة وجودية . وقال بأنه ليس هناك أنا (**Ego**) أو ماهية (**Essence**) كبداية للمعرفة ، بل هناك وجود فى العالم (**Being-in-the-world**) ، وقد سمى هذا الوجود فى العالم " ديزن : Dasein " ، أى الوجود .

ويقول **هيديجر** أن معرفة الإنسان للوجود يتمثل بالعلو (**Transcendence**) . **ويميز هيديجر** بين خصائص ثلاثة للمعرفة هى : **الواقعية** (**Facticity**) ، **والوجودية** (**Existeniality**) **والفقدان** (**Fortfeiture**) . أما **الواقعية** فتقول بأن ليس فى الإمكان أن يكون هناك عالم بدونى أو أكون بدونه ، **والوجود** هو الوجود الذاتى الداخلى للإنسان ، أما **الفقدان** أو الخسران فهو حياة الإنسان مع الغير ومن أجل الغير وبذلك فهو فى **حالة اغتراب مع نفسه** .

ثم **جابريال مارسيل : Gabrial Marcel** (١٨٨٩ - ١٩٧٣) ، ويعتبر من المساهمين فى نشر الفلسفة الوجودية فى فرنسا . ويقول مارسيل بأن الوجود خالد وأبدى وغير مستهلك ، وأنه فقط عن طريق المشاركة بالوجود يمكن للإنسان أن يقهر الوحدة واليأس . ففى الوجود نصل إلى إشباع لتجربة الحب والإبداع . ويأسف مارسيل لأن العلاقات الإجتماعية أصبحت علاقات تجريدية وإنتاجية يصبح الإنسان فيه " دور : **Role** " ، لا كـ " ذات حقيقية : **Authentic Self** " . فلم تعد العلاقات إنسانية بل أصبحت إنتقادية ، وبذلك أصبح الإنسان **مغتربا** لا عن ذاته فقط بل عن مجتمعه أيضا ، لأن قيمته تتحدد بمدى نجـــاح الدور الذى يقوم به ومدى تأثيره على الآخرين .

ثم نأتى إلى أكثر الفلاسفة الوجوديين أهمية وأكثرهم تأثيرا ، وهو **جان بول سارتر : Jean Paul Sarter** (١٩٠٥ - ١٩٨٠) . والوجود هو محور فلسفة سارتر ، فالوجود لديه يسبق الماهية ، وليس الماهية هى التى تسبق الوجود كما سبق وأن ذكرنا . ومتى كان الوجود

سابقا على الماهية فلن يبق للإنسان شيء يعين سلوكه ويحد من حريته . لهذا فقد قرر سارتر أن الإنسان حر تماما ، وهو الذى يصنع بنفسه هذه الحرية . فسارتر خلافا لكانط لا يعتقد بوجود سابق (A prior) بالأخلاق ، أى لا يوجـــد مبادىء أخلاقية أو أحكام قيمية بنفسها بل إننا نوجد قيمنا فى هذه الحياة . ولهذا كان الإنسان حرا كل الحرية فى كل ما يفعل ، لا يتقيد باى شيء .

كما قرر سارتر أن الإنسان هو الذى يختار بنفسه صفاته المميزة له بعد وجودة (ومن هنا جاء اسم **الوجودية** ، كما سبق وأن أشرنا) ، وبهذا استبعد سارتر من دراسته البحث فى مسألة وجود " الله " تعالى ، واكتفى بدراسة الإنسان منذ وجوده فى الحياة [٨٤] ، وجعل مصدر هذا الوجود مبنيا للمجهول . ولهذا نجد أن جهد سارتر قد تركز على ، أو هو فى أساسه هجوم واضح ضد " الميتافيزيقا " ، أى ضد كل بحث عن أصل الوجود . ولقد أصاب أحد الباحثين ، وهو " بدرو ديسكوبس : Pedro Descops " ، حين قال **أن مذهب سارتر قصد منه أن يكون دفاعا عن الإلحاد** [٨٥] .

والوجودية لا ترى أن بوسع الإنسان أن يجد معونة أو علامة على الأرض تهديه السبيل (لاحظ ــ هنا ــ اليأس الواضح من الفكر الدينى المتاح له ، وهو اليهودية والمسيحية ، وإنه لا جدوى منهما) . لأنها ترى أن الإنسان يفسر الأشياء بنفسه كما يشاء ، وإنه محكوم عليه فى كل لحظة أن يخترع الإنسان . فما الإنسان " **إلا ما يصنع نفسه وما يريد نفسه وما يتصور نفسه بعد الوجود** [٨٦] " .

---

[٨٤] يمكن هنا ملاحظة القفزة الهائلة فى هذا الفكر ــ تماما مثل الفلسفة المادية ــ وهو الفكر الذى يبدأ بوجود الإنسان ، ويتعامى هذا الفكر عن الموجد لهذا الإنسان ، والموجد لوعيه وعقله وإدراكه وإرادته . كما تعامى هذا الفكر عن الموجد للجانب الروحى للإنسان .. وعن الموجد والمقرر بتطور عقل الإنسان .. كما أغفل هذا الفكر أيضا الموجد لهذا الكون ، والموجد للقوانين المادية التى تحكمه ، وكذا الموجد لعدد لانهائى من الأمثلة التى تركت مفتوحة وبلا أجوبة فى هذه الفلسفة . وبديهى تمثل هذه الفلسفة ، فلسفة سطحية ومتهافتة ، ولكننا نكاد نسمع هؤلاء الفلاسفة يقولون إن البدائل الدينية لدينا ، هى المسيحية على النحو السابق صياغتها فى الباب السابق ..!! وهذا مالا يمكن إحتماله أو أن نطيقه ..!!

[٨٥] " الميتافيزيقا عند الفلاسفة المعاصرين " د. محمود رجب ، دار المعارف . ص : ١٤٣ .

[٨٦] ولا يعنى هذا الفكر إلا أن يكون الإنسان هو الذى خلق نفسه بنفسه .. كما ينكر وجود القضاء والقدر ..!! كما يعنى هذا ــ أيضا ــ أن الإنسان هو الذى سوف يحدد مصير نفسه بنفسه بعد هذا الوجود الأرضى ، أى بعد الموت ..!! فيكفى أن يفكر الإنسان بأنه سوف يكون فى نعيم أبدى ــ بعد الموت ــ لأن يكون فى نعيم أبدى . وأعتقد إن فكر كهذا يجعل من صاحبه أقرب إلى الجنون أو البلاهة منه إلى العقل . فلا يمكن أن يكون فكر كهذا فلسفة على الإطلاق ..!!

ولهذا يظن سارتر إنه ينقذ حرية الإنسان من الجبرية . وهو لهذا يصف مذهبه ، أى الوجودية : " **بأنها مذهب تفاؤل لأنها تضع مصير الإنسان بين يديه** " فتجعل حياة الإنسان ممكنة [٨٧] "

كما يعنى سارتر بفكرته عن " **النبذ** " بأنه ليس هناك ثمة " رب " وضع قيما أو مثلا عليا للبشرية على الإنسان أن يسعى إلى بلوغها ، وإنما على الإنسان أن يخترع قيمه الخاصة ، وهو يوجد وجودا أصيلا (**Authentic**) بمقدار ما يسعى إلى تحقيق قيمه الخاصة . ولكن ليس كما قال ديستوفسكى ، إذا لم يكن هناك رب فكل شىء مباح للإنسان . ففكرة المسئولية لدى سارتر هى التى تؤدى إلى ممارسة الضبط (أى ضبط النفس) والتحكم ، وكذلك مصدر الألم الذى مبعثة الاختيار . وعموما فإن رفض الأخلاق المتعارف عليها هى سمة يتسم بها الوجوديون جميعا ، بمن فيهم من بعض الوجوديين المسيحيين [٨٨] . ويرى سارتر ، ومعه الوجوديون ، بأن الإنسان " ملقى به " أو مطروح فى " **الهم** " ، **فهو موجود يتسم بالهم والزمانية** ، وهو فى النهاية متروك للموت ، بحيث يتوقف إحساسة باللاتناهى عند حدود تناهيه الجذرى وهى موته . وبهذا يمكن أن نحكم على الوجود البشرى بأنه عبث بصفة أساسية . ولكن **جون مكورى** [٨٩] يقول ، بأنه لم يصل أحد من الوجوديين ، حتى أشدهم تطرفا ، فيما يبدو إلى نظرية عدمية أو عبث بشكل مطبق (وهو يقصد بذلك أنهم يتحركون في إطار العبث النسبى) .

ثم تأتى " اللحظة الحاسمة " لسارتر ــ كما يسميها هيديجر ــ وهى " لحظة مواجهة الموت " ، فيفزع ذلك الفيلسوف التائه الضال كأمثاله ..!! ونراه يتراجع عن كل فلسفاته ، ويطلب سارتر قبل موته من رفيقة حياته " سيمون دى بوفوار " أن تأتى له بقس ، ورغم دهشتها الشديدة ، واستنكارها لموقف سارتر إلا أنها جاءت له بالقس ..!! ــ كما سبق وأن ذكرنا ــ واعترف له سارتر بهزيمته أمام الموت .. أملا فى النجاة ..!! ولكن أي نجاة هذه ..!!

---

[٨٧] " تاريخ الفلسفة الحديثة " يوسف كرم ، دار المعارف . ص : ٤٥٧ .

[٨٨] " الوجودية " ؛ جون ماكورى ، ترجمة د. إمام عبد الفتاح ، مراجعة د. فؤاد زكريا . دار الثقافة للنشر والتوزيع . ص : ٢٩٩ وما بعدها .

[٨٩] المرجع السابق ، ص : ٣١١ .

٣. ٥. ٣. الفلسفة اللغوية (Linguistic Philosophy)

ومؤسسها لودفيج فيتجنشتاين : Luddwig Wittgenstein (١٨٨٩ - ١٩٥١) ، وتتمثل أهم مبادئها فى أن الفلسفة عبارة عن نشاط (Activity) وليس محتوى حقيقي ، بل أن اهتمامها هو إهتمام لغوى مبنى على مبدأ التحقق (Verifiability Principle) . فاللغة هى وسيلة معرفة العالم والأشياء الموجوده فيه ، وهذا يتطلب معرفة كيفية إستعمال الكلمة فى الجملة . والفلسفة هى مجرد تحليل لغوى . ويقول فيتجنشتاين أنه من الخطأ أن نتساءل عن معنى الكلمة ، بل يجب أن نعرف كيف نستعملها ؟ لذلك لا يجب أن نتساءل عن معنى مطرقة أو شاكوش أو منشار .. إلى آخره ، ولكن علينا أن نتساءل عن وظائف هذه الكلمات التى تختلف باختلاف الأداة . وهكذا أراد فيتجنشتاين أن يؤسس منهجا فى المعرفة عن طريق إستعمال اللغة ، باعتبار أن اللغة هى عجلة الفكر . ويقول بأن هدف الفلسفة هى أن تضع كل شيء أمامنا ولا تفسره ، فمادام كل شيء واضح فهو لا يحتاج إلى شرح .

وقد أنكرت الفلسفة اللغوية كل بحث لا يستند على تفكير علمي ، ورفضت البحث فى المسائل الميتافيزيقية مثل الكون وقيم الإنسان ومبادئه الثابتة وأصله ومصيره ، واعتبرت أن هذه قضايا غير ذات معنى مادام الإنسان ليس بإمكانه إيضاحها أو برهنتها .

ولقد تأثر فلاسفة أكسفورد بفلسفة فيتجنشتاين ومنهجه ، أمثال جلبرت رايل (Gilbert Ryle) ، وجون أوستين (John Austin) ونويل سميث (Nowell Smith) ، وكانوا قد اجتمعوا فى ندوة قرب باريس وجمعوا أعمالهم فى مجلد بعنوان " **الفلسفة التحليلية** " ، وركزوا فيها على دور اللغة وأهمية التحليل اللغوى . وكان اهتمامهم الرئيسى مركزا على الكلمات والنظم والعبارات ، والوظائف المختلفة لأنـــواع التعبيرات ، هادفين بذلك إلى تفحص اللغة كلغة لحل المشكلات الفلسفية .

٣. ٥. ٤. الفلسفة الوضعية المنطقية (Logical Positivism)

هي واحدة من المدارس الفلسفية التي ظهرت في القرن العشرين أسسها موريس شليك عام ١٩٢٩م ، ويرجع مصطلح الوضعية (Positivism) إلى أوجيست كونت : Auguste Comte (١٧٩٨ - ١٨٥٧) [٩٠] ، فى أثناء سعية لتأسيس علم الإجتماع كعلم مستقل وفصله

---

[٩٠] سبق التكلم عنه بالتفصيل ؛ فى الفصل الأول ــ فقرة ١ من هذا الكتاب .

عن الفلسفة . وهذه الفلسفة تهدف إلى تغيير الفكر الفلسفى من تفكير ميتافيزيقى إلى تفكير علمى متأثرة فى ذلك بالمنهج الحسى وفلاسفته أمثال بيكون ، وبيركلى ، ولوك ، وهيوم حيث تستند على التجربة الحسية . وأهم فلاسفة هذه الفلسفة هو الفيلسوف الإنجليزى **ألفريد جولز آير : Alfred Jules Ayer** (١٩١٠ – ١٩٨٩ م) . ونادى آير بالقضاء على التفكير الميتافيزيقى ، وقال بأن الفيلسوف الميتافيزيقى هو شاعر يتحدث بكلام فارغ . ولهذا نجد آير يعترض على المنهج الاستنباطى الذى هو من خصائص التفكير الميتافيزيقى لأنه يسند المعرفة إلى مبادىء أو فروض أولية لا تمدنا بالمعرفة الأكيدة . وقال آير بأن هذه المبادىء ما هى إلا فروض بحاجة إلى تبرير . وبذلك تصبح كل محـــاولة للمعرفة من خلال المنهاج الاستنباطى هى محاولة فاشلة .

وقد عُرِفَ " آير " **بمبدأ التحقيق : Verification Principle** " في اللغة والحق والمنطق ، بمعنى أن أي جملة لها معنى فقط إذا كان لها تحقيق عملي تستمد منه معناها ، كما وأن أي فرض يجب أن يتلاءم مع تجربة ما ليستمد منه صحته ، لذلك يجب أن لا نستنتج الأحداث من المبادىء الأولية إستنباطيا (أي بالبراهين العقلية) بل إستقرائيا (أي بالتجربة) . كما قال بأن " اللغة الدينية " غير قابلة للتحقيق وبالتالي لا قيمة لها ، وبالتالي فجملة " الله موجود " تتساوي مع جملة " الله غير موجود " ولهذا كان آير ملحدا ..!! ولكن ؛ في جميع الأحوال لم يستطع آير أن يقدم برهان قاطع على أن " الله غير موجود " .

وقد أشار آير إلى أن **ديفيد هيوم** قال بأنه ليس هناك حادثة تشير إلى أخرى ، ولهذا اعتبر آير بأن الفرض الذى قال به **ديكارت** " **أنا أفكر فأنا موجود : Cogeto ergo sum** " هو فرض خاطىء ، لأنه يمثل أحداثا مستقلة (بمعنى أن التفكير حدث مستقل ، والوجود حدث مستقل.ولا علاقة بينهما) ، ولهذا " **أنا أفكر " ليس من الضرورى أن يتبعها " أنا موجود** " .

وهكذا ؛ نادت الوضعية المنطقية بأن كل شيء لا يخضع للتجربة والتحليل .. غير معترف به بما فيه الإنسان لأنها تصبح قضايا خالية من المعنى . كما رفضت الوضعية المنطقية جميع الأسئلة الفلسفية المتعلقة بالميتافيزيقيا , لأن اهتمامها بالتحليل المنطقي فقط . وأكدت الوضعية المنطقية على الاتجاه العلمي ووحدة العلم .

٣. ٥. ٥. الفلسفة البراجماتية (Pragmatism) أو " فلسفة الذرائع "

البراجماتية مصطلح مشتق من الكلمة اليونانية **Mpayua** وتعنى **action** أى فعل ، ومنها جاءت فلسفة البراجماتية أو **الفلسفة العملية أو الأدائية** . وتعتبر هذه الفلسفة أول إسهام فكرى أمريكى فى الفلسفة الغربية . وتسمى هذه الفلسفة أيضا بإسم " **فلسفة الذرائع** " ، أى الفلسفة التى تتخذ من النتائج العملية مقياسا لتحديد قيمة الأفكار الفلسفية ومدى صدقها . **وقد وضعت هذه الفلسفة العمل فوق العقيدة ، والخبرة فوق المبادىء الثابتة ، واتخذت من النتائج العملية مقياسا لتحديد قيمة الفكرات وصدقها .**

والفلاسفة الثلاثة اللذين أسسوا الفلسفة البراجماتية هم : **شارلز س. بيرس : Charles S. Peirce** (١٨٣٩ - ١٩١٤) ، وهو يعتبر مؤسس الفلسفة البراجماتية وواجد مصطلحها . و **وليم جيمس : William James** (١٨٤٢ - ١٩١٠) ، و **جون ديوى : Jhon Dewey** (١٨٥٩ - ١٩٥٢) .

والبراجماتية هى فلسفة معاصرة تتفق مع الماركسية فى أنها ربطت الفلسفة بالحياة والمجتمع وأرادت من الفلسفة أن تكون أداة لتغيير المجتمع . إلا أن الاختلاف بينهما هو أن الماركسية تمثل مجتمعا إشتراكيا يسعى إلى الشيوعية فى نهاية مراحلة ، بينما تمثل البراجماتية مجتمعا رأسماليا يسعى إلى المزيد من الرأسمالية .

ويوضح لنا **بيرس** ــ مؤسس البراجماتية ــ معناها : بأنها الإتجاه الذى يجعل من معرفة معنى القضية (أى قضية) هو معرفة ما يترتب عليها من آثار وسلوك (لاحظ التقارب الفكرى بين هذه الفلسفة وبين الفلسفة اللغوية . ففى الفلسفة اللغوية لا يتم البحث عن معنى الكلمات ، بل يتم البحث فى وظائف تلك الكلمات وما تؤديه من معنى / أي هم يدورون في دائرة مفرغة) . فمثلا نحن نجهل حقيقة الكهرباء ، ولكن جهلنا يزول إذا ما عرفنا آثارها [٩١] ، **أي ما تؤديه لنا من أغراض عملية ومنافع** (لاحظ مفهوم فكر الأداء والمنفعة هنا ، أى فكر الفلسفة الأدائية ، وهو إسم الفلسفة ذاتها) . وتبعا لذلك فإننا إذا أردنا أن نوضح أية فكرة من أفكارنا ، فما علينا سوى أن ننظر إلى الآثار العملية التى تتولد من هذه الفكرة ، والإحساسات المباشرة وغير المباشرة التى تترتب عليها ، وكذا ردود الأفعال التى يجب أن نعمل حسابا لها . وبهذا المعنى يكون معنى الفكرة هو تصور النتائج العملية المترتبة عليها .

---

[٩١] **لاحظ هنا ، أنه بدلا من الإعتراف بالجهل ، قاموا بالتظاهر بالمعرفة .**

وقد رفض ديوى القول بأن هدف الفلسفة هو البحث عن الحقيقة المجردة بصرف النظر عن الزمان والمكان ، بل الحقيقة يجب أن ترتبط بالمنفعة في دنيا العمل .

بمعنى أن الحقيقة تبدو حقيقة فعلا إذا ما **حققت منفعة فى دنيا العمل** [٩٢] . بل ورأى ديوى أن الفلسفة كالسياسة والأدب والفنون ، إحدى ظواهر الحضارة الإنسانية ، وتتصل إتصالا وثيقا بالتاريخ . فالفيلسوف ــ كالأديب والفنان والسياسى ــ يتأثر بمشكلات زمانه ، ويعبر عن التغييرات المتتابعة فى الحضارة ويهدف إلى وضع قيم جديدة . ولم يقتصر فكر ديوى بالربط بين الفلسفة والحضارة ، بل انتهى فى أواخر أيامة ــ كما فعل افلاطون ــ إلى أن البحث فى الخير والقيم هو صميم الفلسفة .

هذا وقد إعتمدت البراجماتية فى تحديدها لوظيفة الفلسفة على كتاب وليم جيمس (مبادىء علم النفس) ، الذى حاول فيه أن يجعل المنهاج العلمى وسيلة لدراسة الموضوعات الإنسانية ، مما أدى إلى تغيير بعض المفاهيم (كالشعور والذكاء) ، والتى كانت تعرف تعريفا تأمليا مجردا .

وعموما فقد إهتمت الفلسفة البراجماتية بالحقائق الواقعية العادية بدلا من الحقائق المجردة ، التى كانت تهتم بها الفلسفات القديمة . واستخدمت المناهج التجريبية بدلا من المناهج التأملية . وبذلك جعلت الفلسفة كالعلم وسيلة للتوجيه فى عالمنا الذى نعيش فيه . وعلى الفلسفة أن تعمل على رقية وتحسينه وتجميله وتأمينه . وبديهي أن فكرا كهذا لم يقدم شيئا يذكر عن الإنسان ، من ناحية وجوده ومصيره ، وكذا الغايات من خلقه ، كـما لم يقدم هذا الفكر أى تصور ممكن عن الله .. سبحانه وتعالى .

٣. ٥. ٦. الفلسفة التحليلية (Analytical Philosophy) :

وهى فلسفة ليس لها تعريف دقيق ولكنها تتميز بالخصائص الأربعة التالية : (١) اعترافها بدور اللغة الفعال فى الفلسفة . (٢) الاتجاه إلى تفتيت المشكلات الفلسفية إلى أجزاء صغيرة ومعالجتها جزءا جزءا . (٣) الكشف عن حقيقة العالم الخارجي من أجل اكتساب المعرفة ، مع

---

[٩٢] **وبديهى يمثل هذا المبدأ خروج هذه الفلسفة عن الأخلاق إذا ما تناقضت المنفعة معها ، أو بمعنى آخر أنه لن توجد قوانين أخلاقية مطلقة خارج المنفعة . وبهذا المعنى تصبح الجريمة ــ إن صح القول ــ قانونية ومشروعة ، طالما أن الجريمة تكتسب مشروعيتها من المنفعة . راجع كذلك بند (١١ . ٧ ــ البرهان الأخلاقى) من الفصل الثانى من هذا الكتاب .**

التمسك بمعتقدات المذهب العقلى . (٤) المعالجة البين ذاتية (Intersubjective) لعملية التحليل ، وهو ما يعنى استخدام نوعا من التحليل له معنى مشترك بين الذوات .

ويعتبر برتراند رسل أحد رواد هذه الفلسفة . وفى الواقع ؛ لا يمثل الفلاسفة التحليليين نمطا واحدا من الفلاسفة يتفقون على دوافع تفكيرهم وأهدافه ، بل لا يوجد أيضا اتفاق عام حتى على الإسم الذى يميز حركتهم الفلسفية ، ولهذا تسمى فلسفتهم حينا باسم " التحليل اللغوى " ، وأحيانا باسم " التحليل المنطقى " .

وإلى هنا ينتهى سرد الفكر الفلسفى منذ فجر الحضارة البشرية وحتى وقتنا المعاصر . ولننظر الآن لنرى ــ عن قرب ــ ماذا قدمت هذه الفلسفات للإنسان من فكر ..؟!

٤. ثم ماذا قدمت الفلسفة للفكر البشرى بعد آلاف السنين ..؟!

والآن وبعد استعراضنا للفكر الفلسفي للإنسان على مر تاريخه وحضاراته ، أى منذ بدء الفلسفة اليونانية القديمة وحتى الفلسفات المعاصرة ، آن لنا أن نسأل أنفسنا ، كما نسأل الفلاسفة أيضا بعد هذا العرض السابق ، السؤال التالى : وماذا قدمت لنا الفلسفات من فكر ايجابى عن حقيقة وجود الإنسان والغايات من خلقه ، وعن حقيقة وجود الله وصفاته ..؟!

فكما رأينا أن الفلسفة فى جميع العصور كانت تدور حول تحديد : " **نظرية المعرفة** : **Epistemology** " أو (**Theory of Knowledge**) ، ولكن بتباينات شتى وظهورات مختلفة ، **أملا في أن تقود هذه النظرية إلى سعادة الإنسان ومعرفة وجوده ومصيره والغايات من خلقه . وأملا فى أن تقود هذه النظرية .. إلى معرفة شئ ما عن " الله " (ﷻ) خالق هذا الوجود ، وشئ ما عن صفات هذه الذات ..!!** وتتبدد أحلام الإنسان وآماله فى الوصول إلى معرفة أي شئ ..!! لأن الإنسان لم يبدأ إلا بنفسه .. وبذلك لم ينته إلا بنفسه فى هذه الفلسفات ..!!

وقد رأينا أن **هذه الفلسفات ــ والنظم الوضعية التي انبثقت منها أو عنها ــ لم تؤد إلى معرفة ما : عن سعادة الإنسان ووجوده ومصيره ، كما لم تؤد هذه الفلسفات إلى معرفة ما : عن الغايات من خلقه ، كما لم تؤد إلى معرفة ما : عن الله وعن كمالاته أو صفاته الإلهية المطلقة** . هذا باستثناء ما توصل إليه الفلاسفة من إدراك للفطرة أو المعرفة الفطرية ، وهى المعرفة التى ركبها الله فى الإنسان بنوعيها ، أى **فطرتي التدين وإدراك وجود الإله** (أي رغبة

الإنسان في اعتناق ديانة ما بلا تحديدية ، وإدراك وجود الله وما ينبغى أن تكون عليه من كمالات ولكن بلا تحديدية أيضا) ، وهذه المعارف لا تحتاج لإدراكها إلى أي نوع من أنواع الفلسفة ، حيث أنها معارف فطرية مركبة في كل الناس .

وهكذا ؛ فشلت الفلسفات المختلفة قديما وحديثا فى تقديم البدائل للإنسان للدين والتدين ، كما فشلت الديانتين اليهودية والمسيحية فى احتواء الفكر البشرى . وهكذا انتهى الأمر بالإنسان إلى اعتناق أحد من الاتجاهات أو المذاهب الفكرية التالية :

[١] اللاأدرية (Agnosticism) : وهو المذهب الذى يقول بأن إقامة الدليل أو البرهان على وجود الله مستحيل ، وإن لم ينف إمكانية وجود الله . وهناك تعريف آخر لهذا المذهب ؛ وهو الذى يقول بأن وجود الله وأصل الكون هى من الأمور التى لا سبيل إلى معرفتها ، أو من المستحيل معرفتها .

وربما كان هذا المذهب ، يمثل الاعتراف الصريح بفشل الفلسفات فى الوصول إلى نتائج حاسمة أو حتى فكر معقول يمكن أن **يُعوّل عليه** فى البرهنة على وجود الله ، ومعرفة الغايات من خلق الإنسان . كما يبين هذا المذهب أيضا عدم قدرة الإنسان فى الخوض فى المسائل الدينية أو الإلهية بصفة عامة ، معتمدا فى ذلك على ذاته فقط .

[٢] العالمانية (Secularism) : وهو الاتجاه الفكري الثاني ، وهو ــ فى الواقع ــ فكر متغير ، فمعناه يتغير مع الزمن ، فقد ظل على ما يزيد على قرن من الزمان يعرض بمفهوم شغل الفكر بمسائل العالم المادية فقط ، ثم تغير هذا المعنى بعد ذلك إلى الفكر المضاد للإيمان بالدين ، أو بمعنى أدق هو فكر يرفض التربية الدينية ، فى جميع المراحل التعليمية . حيث يرى هذا الفكر أن " **الله قد انسحب من هذا العالم ..!!** "

[٣] الإلحاد (Atheism) : وهو الاتجاه الفكرى الثالث والأخير ، وهو مذهب لا يعتقد أتباعه فى وجود " الله " ، أو هم ينكرون الله على نحو مطلق .

وهذا هو منتهى علم الإنسان .. وهذا هو منتهى فكره .. بعد أن أوصدت الديانات الوثنية الطريق أمامه (وعلى رأسها اليهودية والمسيحية) ، فى التعرف على نفسه والتعرف على

خالقه .. وبعد أن فشلت الفلسفات الوضعية فى أن تحتـــويه ، أو أن تقوده إلى أي طـــريق للهداية ..!!

لهذا كان التدخل الإلهي ــ من خلال الوحي ــ ضرورة تحتمها العلة الغائية من وجود وخلق الإنسان . وذلك ؛ حتى يستكمل الله (ﷻ) جوانب نقص المعرفة لدى الإنسان ، في الأمور التى لا يمكنه الخوض فيها ، معتمدا فى ذلك على ذاته وفكره فقط .

وأود أن أؤكد ــ هنا ــ على الآتي : فليس معنى أن الإنسان غير مؤهل لاستنتاج الأمور والمقاصد والغايات الإلهية ، أن يكون غير مؤهل للحكم عليها وعلى مدى صحتها وصدقها من الناحية المنطقية إذا ما عرضت عليه . لا ..!! ففى الواقع ، أن الحكم على صحة هذه الأمور ، قد قضى الله (ﷻ) أن يضعها فى نطاق قدرة الإنسان . أى أن حكمة الله (ﷻ) قد قضت بأن تضع البراهين الدالة على صحة وصدق هذه الأمور فى حيز المنطق الفكرى أو الحيز العقلي لدى الإنسان . أى فى حيز الملكات العادية التى يمتلكها الإنسان ؛ وإلا خرجت هذه الأمور كلها من مناط التكليف والابتلاء (أى الإختبار) والمساءلة الإنسانية ، بل ويمكن أن تكون حجة لنا نقيمها يوم القيامة ــ أمام الله .. وحاشا ذلك ــ لتبرير عدم اهتدائنا إلى المعرفة الحقة له (ﷻ) وكذا الغايات من خلقنا . ولهذا ينبهنا المولى (ﷻ) بقوله تعالى :

﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ... (٢٨٦) ﴾

(القرآن المجيد : البقرة {٢} : ٢٨٦)

ومعنى لها ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ أي لها ما كسبت من الخير ، وعليها ما اكتسبت من الشر .. أي وزره ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد . ويتأكد هذا المعنى ــ أيضا ــ في قوله تعالى :

﴿ وَلاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيـْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٦٢) ﴾

(القرآن المجيد : المؤمنون {٢٣} : ٦٢)

وهو ما يؤكد أن جميع أمور الحكم على المقاصد الإلهية ، والغايات من خلق الإنسان فى متناول الحكم والقدرة الفكرية للإنسان .

٥. ونظرات حول الفكر الفلسفى والفكر الإلهى ..

وننتهي من العرض السابق إلى أن الفلسفة ــ فى أحسن احوالها ــ لم تقدم للدين إلا ما تقدمه التجربة المعملية ذات الدلالة المحدودة ، لبيان جزئية صغيرة ذات معنى ضيق ومحدود من طيف عريض من المعانى والمفاهيم العامة التى تتنبأ بها إحدى النظريات العلمية العامة ذات المضامين الشاملة والفكر المحيط . وبديهى لا توجد تجربة بدون نظرية ، ولكن قد توجد النظرية بدون التجربة . لذلك فإن الدين (النظرية) ليس فى حاجه إلى الفلسفة ، بينما الفلسفة لا يمكنها الاستغناء عن الدين لاستكمال المعاني التي تحاول الوصول إليها . فالفلسفة ــ في الواقع ــ تمثل المحاولة المتواضعة التى يبذلها الإنسان فى محاولة منه لإسباغ المعنى المعقول على وجوده ، ومعنى مصيره إن وجد ..!!

ولو توخينا الدقة فإنه يمكن تعريف الفلسفة من وجهة النظر الدينية : بأنها المساعى الحميدة ــ التى لا تقدم شيئا سوى الفطرة النقية وبعض التأكيدات الثانوية ــ والتى يبذلها الإنسان من جانبه فى محاولة معرفة معنى لوجودة ومصيرة إن أمكن .

ولكن في كل الأحوال ينبغي أن أؤكد على دور الفلسفة الهام فى السياسة والأخلاق والإجتماع ونتائجها الإيجابية فى هذا الشأن ، وذلك فى حالة غياب الدين الصحيح . وكذا المساهمة الإيجابية والحقيقية ــ للفلسفة ــ فى مجال تقدم الحضارة البشرية على مر العصور المختلفة ، وذلك فى غياب الدين الصحيح أيضا . وكذا دور الفلاسفة المعاصرين فى الدعوة للسلام العالمى فى الوقت الحالى . **ولكن ما أعنيه هنا بهذا التعريف السابق هو دور الفلسفة وما أحرزته فى مجـال معرفة الإنسان لوجوده ومصيره فى هذا الوجود ، وهما موضوع الكتاب .**

والكاتب يعتقد أن الفلسفة تمثل الضمير الإنسانى ، أو الفطرة البشرية ، فى حالة غياب الدين الصحيح . أما فى حالة وجود الدين الصحيح ، ومنهاجه وقياسه العلمي الكلي ، **فلا مكان ولا دور للفلسفة بمفهومها الحالى** . فهى قاصرة عن تقديم أى شيء ذى نفع حقيقى لا من جانب الوجود ، ولا من جانب المصير ، ولا من الجانب الخاص بفكر الخالق وغاياته من الخلق . كما وإن الجانب الأخلاقى فى الفلسفة هو عادة فكر غير قياسي وناقص أو بمعنى آخر هو فكر قاصر بدرجة واضحة وملحوظة ، لأن هذا يستلزم الإحاطه الكامله والدقيقة بالفكر البشرى وطبيعة الإنسان ، وهذا لا يتأتى إلا من خلال الدين الصحيح .

وعموما لم تؤد الفلسفة ــ حتى الآن ــ بالإنسان إلا إلى " **الشعور بالإغتراب** " ، وهى تسمية يتبناها فلاسفة اليوم ، ولا تعنى أكثر من " **الشعور بالضياع** " . وهو الشعور الذى يمر به إنسان اليوم والذى يوحي معناه ، بأن الإنسان يكاد يصبح شيئا ــ تافها ــ من بين أشياء أخرى فى هذا الكون ، وبهذا يكاد يفقد الإنسان معنى وجوده على نحو مطلق .

ففى الواقع ؛ إن الفكر الفلسفى منذ نشأته وحتى الآن ــ إذا ما استثنينا بعض النظم الوضعية والبحث عن السعادة ــ يمكننا القول بأن الفكر الفلسفي يدور فى فلك الصراع بين **المعرفة العقلية** (والتى يطلق عليها المعرفة الميتافيزيقية) [٩٣] ، وبين **المعرفة الحسية** (والتى يطلق عليها المعرفة العلمية) [٩٤] . ويقف الفلاسفة الآن ــ وكل متشيع لرأية ــ ليتساءلوا .. هل تأتى لنا المعرفة بطريق : العقل وبمنهاج عقلى (**Rationalism**) ، أم بطريق الحس وبمنهاج حسى (**Empiricism**) ؟ أم إنها تأتى لنا : بالحدس (**Intuition**) أم بالتجربة (**Experience**) ؟ أم إنها (أى المعرفة) تأتى لنا : من خلال الروح (**Spirit**) أم من خلال المادة (**Matter**) ؟

وما الفلسفات الألمانية الكانطية (Kantianism) والهيجلية (Hegelianism) ، من جانب ، والماركسية (Marxism) من جانب آخر ، إلا تعبير عن هذين الإتجاهين الفكريين (العقل والحس) وصراعهما بنحو ما .. أو آخر . وقد تطور هذا الصراع فى الفلسفة المعاصرة ، وظهرت المناهج الفلسفية المتضادة ، كفلسفة الظاهرات (Phenomenology) ، والفلسفة الوجودية (Existentialism) ، وهى فلسفات أقرب فى اتجاهها إلى التفكير الميتافيزيقى (أى المعرفة بالعقل) . بينما ظهرت الفلسفة التحليلية (Analytic) ، والفلسفة الوضعية (Positivism) ، والفلسفة اللغوية (Linguistic) فى أوربا ، والفلسفة البراجماتية (Pragmatism) فى أمريكا ، معبرة عن التفكير العلمى (أى المعرفة بالحواس).

وما هذه الفلسفات العديدة ومناهجها ، إلا تعبير عن استمرارية الجدل بين الفكر الميتافيزيقى ، والفكر العلمى ؛ أو الجدل بين الفكر العقلى والفكر الحسى . **وما زال الفلاسفة يعتقدون فى أن**

---

[٩٣] التفكير الميتافيزيقى أو المعرفة بالعقل : هي التفكير أو المعرفة التي تبدأ بالذات والتجربة العقلية من حدس (Intuition) وتأمل وإعتماد على البديهيات .

[٩٤] التفكير العلمى أو المعرفة بالحواس : هي التفكير أو المعرفة التي تبدأ أو تبدأ بالعالم الخارجى ، والتجربة الموضوعية من حسابات ومختبرات وإثباتات علمية .

التفكير الفلسفى هو طريقة بحث ومنهاج للوصول إلى معرفة الحقيقة [٩٥] المطلقة . وهذا يعنى أن الفلاسفة لم تكفهم ثلاثة آلاف سنة (أى منذ نشأة الفكر الفلسفى وحتى الآن) من المحاولات العبثية الفاشلة ، ومن إضاعة الوقت فيما لا يفيد ، حتى يفيقوا أو يتنبهوا إلى أن هذه الإتجاهات الفكرية والجدل لن يقودهم إلى معرفة ما عن الإنسان أو الخالق ..!! بل ومازلنا نراهم مستمرين فى المناقشات السوفسطائية التى لا جدوى منها ولا طائل من ورائها ..!!

وينبهنا الله ــ عز وجل ــ وهو أعلم بنا منا ، إلى أنه خلق الإنسان محب للجدل ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) ﴾

(القرآن المجيد : الكهف {١٨} : ٥٤)

كما ينبهنا المولى (ﷻ) إلى أن كل المناهج الوضعية ، لن تقود الإنسان إلى شىء ما ، وها هي الفلسفة ، كما سنعرضها ، لم تقدم للإنسان شيئا ..!! فإلى أين يذهب الإنسان إذن ؟ وقد أوشك أن يعتريه اليأس ، ويتملكه الضياع ، ويملأ نفسه الشعور بالإغتراب ..!! وتكون الإجابة بأنه لن يكون هناك للإنسان خيار إلا إلى الذهاب إلى المنهاج الإلهى لمن أراد الهداية ..

﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) ﴾

(القرآن المجيد : التكوير {٨١} : ٢٦- ٢٨)

وإذا ما أصر الإنسان على الاستكبار والبعد .. ينبهه المولى ــ عز وجل ــ بقوله تعالى :

﴿ ... فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) ﴾

(القرآن المجيد : طه {٢٠} : ١٢٣ – ١٢٧)

---

[٩٥] * المرجع فى الفكر الفلسفى : نحو فلسفة توازن بين التفكير المتافيزيقى والتفكير العلمى * ؛ الدكتورة نوال الصراف الصايغ . دار الفكر العربى . ص : ٢٦ / ٢٧ .

إذن .. لا ملجأ للإنسان إلا إلى الله .. وتعود دورة الحياة (The Circle of life) إلى التكرار ليعيد الإنسان نفسه .. وليقف إنسان مشارف القرن الواحد والعشرين ، نفس موقف كعب بن مالك ، وهلال ابن أمية ، ومرارة بن ربيعة (الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله ﷺ) منذ أكثر من أربعة عشر قرنا .. في قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) ﴾

(القرآن المجيد : التوبه {٩} : ١١٨)

فهذه هى الحقيقة المطلقة التى يجب أن يتنبه لها الإنسان ، وهي أن : ﴿ .. لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ .. ﴾ ثم بأى شيء يعتصم الإنسان .. بعلمه القليل .. أم بحواسه المحدودة .. أم بعقله القاصر .. أم أنه يعتصم بلا شيء ..!! وتعود دورة الحياة (The Circle of life) لتتكرر ، ويكرر الإنسان نفسه .. ويبين لنا المولى (ﷻ) في قوله تعالى عن ابن نوح (عليه السلام) ، عندما ناداه نوح ــ عليه السلام ــ من السفينة أثناء الطوفان ..

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (٤٣) ﴾

(القرآن المجيد : هود {١١} : ٤٢ – ٤٣)

وليت الإنسان يتنبه إلى قوله تعالى ﴿ ... لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ٩٦ ﴾ . ويجب أن أشير هنا إلى أن الإنسان فى رحلته الفكرية ، لم

---

٩٦ وتتجلى الرحمة الإلهية بنوح عليه السلام ، فى قوله تعالى ﴿ ... وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ ، فلم يشأ الله (سبحانه وتعالى) ، أن يجعل نوحا يرى بعينيه غرق إبنه الكافر .. رحمةً منه بنوح الأب . وهنا يتضرع نوح إلى الله ..

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾
(القرآن المجيد : هود {١١} : ٤٥ – ٤٦)

يستطع أن ينفصل عن " الله " بدون أن يدرى .. فرحلة سعية فى هذه الحياة لم تتجاوز فى معناها العميق إلا البحث عن الحقيقة .. وما الحقيقة التى يبغيها الإنسان إلا " الله " سبحانه تعالى .. وليس هذا تفكيرا ميتافيزيقيا أو تفكيرا علميا .. بل هذا تفكير متكامل شديد البساطة ، لإنسان يملك من الحواس والعقل والمعرفة الفطرية ، ما يكفيه لإدراك الحقيقة . إنسان يملك كلا من الجانب المادى والجانب الروحى معا ، إنسان قد قضى الله ــ سبحانه وتعالى ــ له :

[بأن يكون (أي الإنسان) جزئية روحية فى الجوهر ، منحته ــ هذه الجزئية ــ حرية ومسئولية وكمالا إنسانيا بقدر ، وكذا إدراكا ووعيا ومعرفة فطرية بقدر ، وأصبح بموجب هذه الجزئية الروحية الحدود المشتركة (The Common Boundaries) لملتقى عدة عوالم مختلفة أو أكوان متطابقة يخضع ظهوره فيها إلى قوانين سرمدية " فيزيقية/ميتافيزيقية " معا ، تبدأ من عالم الشهادة أو العالم الفيزيائى وتنتهى بعالم الغيب ، وتتوقف مكانته في ظهوراته المختلفة في الأكوان الأخرى على عمله وحركته في كوننا هذا] [٩٧]

والمقصود بعالم الغيب هو عالم الأكوان المتطابقة الأخرى / غير كوننا هذا ، ويتم كل هذا بلا أدنى تضحيات عقلية أو فكرية أو تسلسل منطقى يفقد للقضية معناها أو يفسد مغزاها . والدلائل الدالة على صدق هذه القوانين ، تتعدد وتتنوع حتى تترك الإنسان فى رؤية كلية كاملة متكاملة ، أو رؤية مستيقنة تحيط به وتغلفه من كل جانب ، كما يسطع نورها فى كل جوارحه .

وهنا يتنبه نوح ــ عليه السلام ــ إلى أن الكفر حال بينه وبين ابنه .. فيعود ليقول لربه ..

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٤٧) ﴾
(القرآن المجيد : هود {١١} : ٤٧)

وتتجلى القوانين السرمدية والسنن الكونية التى تجرى علينا ــ نحن البشر ــ لتحقيق الغايات من خلقنا .. حيث نتحسسها فى قول نوح ــ عليه السلام ــ لله .. ﴿ ... إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ... ﴾ .. ولم ولن ندرك ما ندرك إلا بالله ..

[٩٧] تعتبر هذه الصياغة أحد التعريفات الخاصة بالإنسان . وهو تعريف مستمد مباشرة من واقع الفكر القرآنى . وسوف يتم إلقاء مزيد من الضوء على هذا التعريف ، فى كتابات تالية ، إن شاء الله ، وذلك عند مناقشة حقيقة وجود الإنسان ومصيره [أنظر : " الدين والعلم ... وقصور الفكر البشرى " لنفس مؤلف هذا الكتاب] .

ولم يتنبه هذا الإنسان **المستعمى** أنه ــ بموجب هذه الحرية الممنوحة له ــ هو الذى يغمض عينيه حتى لا يرى حقيقة وجوده ومصيره ..!! كما لم يتنبه هذا الإنسان **المدعى الصمم** أنه ــ بموجب هذه الحرية الممنوحة له ــ هو الذى يضع أصابعه فى أذنيه ويصم أذنيه حتى لا يسمع كلمة الهداية لما يحييه الحياة المأمولة ..!! وعليه أن يتحمل توابع هذه المسئولية ..!! وتتأكد المسئولية الملقاه على عاتق الإنسان صراحة فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾

(القرآن المجيد : الأحزاب {٣٣} : ٧٢)

[الأمانة : هى الخلافة الإلهية ، والحرية فى الفعل ، وقبول التكليف / فأبين : امتنعن / أشفقن منها : خفن من الخيانة فيها]

أى أن الإنسان قد قبل بالخلافة الإلهية (على وجه عام) ، وقبل التكليف بأوامر الله ونواهيه ، كما قبل بالحرية فى اختيار الفعل . ولكنه كان ظلوما لنفسه لأنه لم يول هذه القضية الفكرية العناية الكافية ، وكان جهولا لأنه لم يقبل بالتعلم وبالهداية ، وبالعون الإلهى الممدود إليه ... على مدار حياته .

ومن الغريب حقا ؛ أن يعرض الإنسان عن المعرفة الحقة المقدمة إليه من الله مباشرة ..!! تحت دعوى أنه مر بتجربة مريرة مع الأديان .. بينما نجده يجرى لاهثا ــ يجد فى البحث عن الله بدون أن يدري ــ وراء زيف من المعانى يعتقد أنها سوف تقوده إلى الله .. ولن تقوده إليه ..!! يجرى لاهثا وراء زيف من المعانى يعتقد بأنها سوف تقوده إلى حقيقة وجوده وحقيقة مصيره .. ولن تقوده إلى شئ .. ويكون هذا هو تصديقا لقوله تعالى **﴿ ... إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾** .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (١١٣) ﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ١١٢ – ١١٣)

[لكل نبي : لكل رسالة من عند الله / شياطين الإنس : كل من يضع نظام وضعي يحارب به الدين ويصرف به الإنسان عن معرفة الله سبحانه وتعالى / زخرف القول : الأنظمة الوضعية والفلسفية التي

تكتب كبديل للدين / ولتصغى إليه : تسمع إليه / وليرضوه : يؤمنوا به / وليقترفوا ما هم مقترفون : أي وليرتكبوا من المعاصي ما يريدون أو ما يشاؤون]

ولعمري ؛ إن التأمل في هذه الآية الكريمة وفهم معناها لكاف أن يقود كل ذي فكر إلى الإيمان بالله وبالدين الإسلامي مباشرة وبغير عناء ..!! ولكن ؛ يتبع الإنسان هواه فيما يقول ، ويتبع الإنسان هواه فيما يصف به الله ، ويعرض عن العلم المقدم له .. فيصفه الله في محكم تنزيله بقوله تعالى :

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ [98] فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩) وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) ﴾

(القرآن المجيد : الأعراف {٧} : ١٧٥ - ١٨٠)

[التفسير : فانسلخ منها : فخرج منها بكفره بها / فاتبعه الشيطان : فلحقه وأدركه وصار قرينه / الغاوين : الضالين والهالكين / أخلد إلى الأرض : ركن إلى الدنيا ورضى بها / تحمل عليه : تشدد عليه / يلهث : يخرج لسانه بالنفس الشديد / ذرأنا : خلقنا وأوجدنا / وذروا : اتركوا / يلحدون : يشركون ، والإلحاد هو العدول عن القصد ثم يستعمل في كل معوج غير مستقيم . وقد ضرب الله ــ سبحانه وتعالى ــ هذا المثل لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله]

فهذا هو الله .. وهذا هو الإنسان التارك لمعارف الله .. أأدرك الإنسان .. معنى قوله تعالى .. ﴿ ... وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ .. أي أن حاله ثابت ولامتغير ، فهو غارق في حالة من التبلد العقلي ﴿ ... ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

---

[98] نرى من هذا النص ، أن ملكات الشر لدى الإنسان العاصي أعلى قدرا من ملكات الشر عند الشيطان نفسه ، بدليل أن الشيطان هو الذي يتبع هذا الإنسان العاصي وليس العكس . وهو ما يمثل عبأ إضافيا على الإنسان لتغليب جانب الخير لديه على جانب الشر .

فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، هكذا ﴿ ... سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ... ﴾ أى بآيات الله ومعجزاته في أسلوب خلقه . فهل وعى الإنسان قوله تعالى .. ﴿ ... لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .. أم لم يحن للإنسان بعد فى أن يتفكر فيما يحيط به .. حتى يدرك حقيقة وجوده .. وما سوف يؤول إليه مصيره ..!!

فهذا هو الإنسان اللاهث وراء زيف من المعانى ﴿ .. زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. ﴾ التى لا طائل من ورائها .. وهذا هو الإنسان التارك للمعرفة الكلية التى أتاه الله بها .. فى يسر وبغير عناء ..!!! وهذا هو الإنسان الذى تصرخ كل ذرة من كيانه ووجوده بنداء خفى على الله .. وهو لا يدرك ذلك ..!! ثم أدرك الإنسان .. معنى قوله تعالى .. نتيجة تغييب عقله وحواسه .. ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

فأين الفلسفات ؟ .. وأين الفلاسفة من هذا العلم اللدنى ؟! .. وأين الإنسان ووجوده ؟ .. أم إنه ما زال يقف مغمض العينين ، أصم الأذنين ..!! أأدرك ذلك المغيب عقليا .. **أنه لن يستطيع أن يقود نفسه بنفسه إلى الله .. وإنه لن يستطيع أن يصل إلى الله إلا بالله ..!!** إن الله يمد يد العون إلى الإنسان ليأخذ بيديه .. فهل سيتنبه الإنسان إلى أنه ينبغى له أن يقبل هذا العون الإلهى المقدم له ، وعليه أن يأخذ نفسه طواعية إلى الله .. أم سيظل يتخبط فى جهالاته .. وفى ظلماته .. معتمدا فى ذلك على عقله القاصر وحواسه المحدودة .. التى لن تقوده إلى شىء من بعد .. كما لم تقده إلى شئ من قبل ..!!

ولكن على الإنسان أن يتنبه بأنه هو الخاسر الوحيد لنفسه فى هذا الوجود إن لم يتدارك موقفه قبل أن يأتى إليه الموت الذى يترصده فى كل لحظة من لحظات حياته ، وفى كل حركة من حركات وجوده ..!! ثم يجد نفسه لم يحقق الغايات من خلقه ..!! ألم يحن بعد لإنسان القرن الواحد والعشرين أن يقف موقف صدق مع نفسه .. بدلا من أن يولول .. ويعلو صراخه إلى عنان السماء ليقول لقد أحاط بى الاغتراب ، والضياع من كل جانب ، ولم أعد أدرى من أنا .. ومن أكون ..!!

ثم تبقى كلمة أخيرة للإنسان ، عن مذاهبه الفكرية وما جاء بها على مر حضاراته . ونقول له ، سواء أدرك هذا أم لم يدرك ، سواء استوعب هذا أم لم يستوعب ، ربما لأن هناك شوطا

بعيدا مازال أمامه كى يقطعه حتى يمكنه إدراك ذلك . وهذه الكلمة هى : أن جميع ما جاءت به الفلسفات والمذاهب الفكرية لم يتجاوز فى معناه عن (اثنى عشر كلمة) فقط من كلمات القرآن المجيد (أنظر كذلك الفصل الثانى ، البند الخامس) ، وتأتى هذه الكلمات الاثنى عشر موزعة فى القرآن المجيد على النحو التالى : ستة كلمات منها يصف الله (ﷻ) بها خلق الإنسان ذاته ، كما جاء فى قوله تعالى للملائكة :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي [٩٩] ... (٧٢) ﴾

(القرآن المجيد : ص {٣٨} : ٧٢)

وتشمل هذه الكلمات الفطرة الإلهية فى النفس البشرية . كما تشمل أيضا تعريف الجزء بالكل ، أو تعريف النفس المحدودة بالنفس اللامحدودة ، أو تعريف الـ " هو " الأدنى بالـ " هو " الأعلى ، بلا أدنى إتحاد وبلا أى حلول .

وليس معنى هذا أن الأمر قد اقتصر على وجود الفطرة الإلهية فى داخل النفس البشرية فحسب ، بل تعدى هذا إلى التوابع المترتبة على طبيعة هذا الخلق . فهذه الكلمات تعنى أيضا " **الحرية الإنسانية** " و " **المسئولية الإنسانية** " ، كما تعنى أيضا " **الكمال الإنسانى** " . ويكاد يغيب أفق المعرفة البشرية فى داخل حدود تلك الكلمات الخاصة بطبيعة خلق الإنسان . كما تعنى ، هذه الكلمات ، من جانب آخر المكانة المشرفة للإنسان التى اختص بها الله ــ سبحانه وتعالى ــ الإنسان كمخلوق متميز فى هذا الوجود . وليس هذا فحسب ، بل أن هذه الكلمات الست ، تمثل الصرخة التى يطلقها الإنسان من أعماقه فى كل لحظه ــ بدون أن يعى ــ بحثا عن الله ورغبة منه فى لقائه ، فى لقاء الجزء بالكل ، الصرخة التى ينادى بها الإنسان على " الله " ــ سبحانه وتعالى ــ فى أثناء سعيه الدءوب فى البحث عنه والرغبة فى لقياه . وقد تجد " **فلسفة وحدة الوجود** " أصلا أو جذورا لها فى هذه الكلمات الستة ، إذا ما أسىء فهمها أو أسىء تفسيرها . كما تعنى كلمة " **سويتة** " [١٠٠] ، الواردة فى الآية السابقة ، بأن الله قد قضى بتطور الإنسان

---

[٩٩] أنظر كذلك الملحق الرابع من هذا الكتاب لمزيد من التفاصيل عن قصة خلق الإنسان ، والنظرية الدارونية .

[١٠٠] الآية الكريمة السابقة تمثل قول الله ــ تعالى ــ للملائكة عن الإنسان :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) ﴾

(القرآن المجيد : ص {٣٨} : ٧٢ - ٧٣)

من حال إلى أحوال ، وقد رأينا أحوالا محدودة منها فى هذا الكون المادى .. وسنرى باقى الأحوال فيما بعد ..

ثم تأتى الكلمات الأربع الأخرى ، لتصف فطرية المعرفة فى النفس البشرية ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١) ﴾

(القرآن المجيد : البقرة {٢} : ٣١)

وأدم هنا تعني الإنسان ، وهنا يخبرنا المولى (ﷻ) بأن المعرفة البشرية هى معرفة فطرية قد ركبها الله فى العقل الإنسانى . والآية السابقة تعني " **الحشد** " ، أي حشد الكلمات فحسب ، أما العلاقات المنطقية بين هذا مفردات هذا الحشد ، فتأتي في كلمتين فقط .. في قوله تعالى ..

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾

(القرآن المجيد : الرحمن {٥٥} : ٣ - ٤)

وبهذا المعنى تكون المعرفة هى " **معرفة عقلية** " أو " **معرفة ميتافيزيقية** " (كما يحلو للفلاسفة تسميتها بهذا الاسم) ، وأن مصدرها الله ، سبحانه وتعالى ، وليست مصدرها الحواس (أنظر كذلك الملحق الرابع ، من هذا الكتاب ، لمزيد من التفاصيل) .

وبهذا يستطيع الإنسان العادى إدراك وجود الله بـــ " الفطرة " ، كما يستطيع أدراك " فطرية المعرفة " لديه بالفطرة أيضا ، وليس هنا حاجة إلى فلسفة ما ، لإدراك هذه المعانى . فهذه هى الكلمات العشر ـــ من القرآن المجيد ـــ التى تحدد ماهية الإنسان وطبيعة خلقه المتعالية ، وشكل المعرفة لديه ، وهى التى يدور حولها الفكر البشرى منذ آلاف السنين ولم يستطع إلا الإقترب منها .. ومن بعيد فقط ..!!

و كلمة " طين " تعنى العناصر الأرضية أى المركبات العضوية وغير العضوية ، وكلمة " سوى" الشىء يعنى : قومه وعدله وأنضجه (أى غيره من حال غير صالح إلى حال صالح) . وسوى الشىء بالشىء جعله يماثله ويعادله ، وهى تعنى الوصول به إلى الغاية أو الهدف المحدد أو المراد به من الخلق .

وللحق وقفت طويلا أمام الفكر الفلسفى للبشرية الضالة ، وتأملت هذا الفكر طويلا ، كما تأملت هذه الفلسفات طويلا فوجدتها لم تتجاوز المعانى الفطرية السابقة التى جاء بها القرآن المجيد في تلك الكلمات الاثنى عشر السابق عرضها . فالفيلسوف ــ شأنه فى هذا شأن أى إنسان آخر عادى ــ لديه الوعى الفطرى بوجود الله ، كما لديه أيضا الوعى الفطرى بالمعرفة العقلية بالموجودات المحيطة .. ولكن يبدو هذا الوعى ملتبسا عليه ، وبهذا يصبح متشككا فيما يحس به وفيما يدرك . ويصبح هذا الوعى الفطرى مجرد أحاسيس يحاول جاهدا ودائما التثبت منها ، طالما لم يؤكدها ويفسرها له الخالق بطريقة مباشرة وغير مباشرة ..

ومن الغريب حقا ، أن الفيلسوف يريد أن يصل إلى حالة من الكشف الإلهى ، أى " كشف الحجب" وهى الحالة التى يصل إليها الصوفى [١٠١] كناتج نهائي من ذكره لله ، ولم يدرك الفيلسوف أن الفارق بينه وبين الصوفى ، هو أن الصوفى قد أحسن التوجه إلى " الله " منذ البداية ، بينما الفيلسوف قد أخطأ فى التوجه إلى " الله " منذ البداية . فالفيلسوف لم يتوجه إلا إلى نفسه ، كما لم يتوجه إلا إلى عقله ، وبديهى لن يجد لديه إلا ما لديه ، أى الفطرة التى بدأ بها . وتصبح الفطرة لديه مجرد أحاسيس وإدراكات بحقائق تتطاير كومضات معرفية من حوله ينقصها يقين الكشف المباشر ، وبذلك نجد الفيلسوف يعبر عن هذه الأحاسيس بغموض واضح عن وجوده وأصل معرفته . كما يعبر عنها بتعابير مبهمة فى أغلب أحواله . كما وإن إحساس العامة بهذه التعابير يكاد يكون معدوما من جانب ، كما وإنها تمثل معرفة غالبا فاقده للحياة فى معناها من جانب آخر . وغالبا لا تقود مثل هذه التعابير الفرد العادى إلى شيء له قيمتة ، كما لا يمكن أن تقود ــ هذه المعرفة ــ الإنسانية إلى هداية ما . ودعنا نبين ذلك بالمثال التالى :

سوف نرى حالا ؛ بأن الفلسفة الوجودية (Existentialism) تقول بأن وجود الإنسان سابق على ماهيته ، بينما فلسفة الظاهرات (Phenomenology) تقول بأن وجــود ماهية الإنسان سابقة على وجود الإنسان ذاته [١٠٢] . أى إننا هنا إزاء فكرين متناقضين تماما ، فكلا الفلسفتين تقف من الأخرى موقف الفكر المناقض للفكر الآخر ..!!

---

[١٠١] لابد لي أن أنبه إلى وجود بعض الفرق الصوفية الضالة ، وهي الطرق التي تذيب الفوارق بين الأديان ، وتعتمد في ذكرها على وجود الفطرة الإلهية فقط ، بينما تغض بصرها عن المنهاج الإلهي نفسه .. وهو ما يخرجها من حيز الإيمان إلى الشرك بالله ..!! فلا يجوز عبادة الله ــ سبحانه وتعالى ــ إلا بمنهاجه .. وليس بمنهاج وضعي من هوى البشر ..!!

[١٠٢] يرى الفلاسفة أن لكل شيء : " مَاهِـيَّــة " و " وجود " . فــ " الوجود " هو الحضور الفعلى للشيء فى هذا العالم . أما " المَاهيَّــة " فهى الصفات الجوهرية الثابته التى يكون عليها الشيء (أي الفطرة باختصار شديد) . فالإنسان ماهيته كائن حى حساس مفكر ، أما وجوده ، فهو

ولنا هنا التعليق التالي : فمن منظور الفكر الفلسفي فإن : " **الماهية تسبق الوجود** " (كما في فلسفة الظاهرات) ، تستلزم وجود الإله ، بينما " **الوجود يسبق الماهية** " (كما في الفلسفة الوجودية) لا يستلزم وجود الإله بالضرورة .

والجهل الواضح في الفلسفة الوجودية ــ والذي لم تتنبه له ــ أنها لا تستطيع إنكار وجود المادة والقانون الطبيعي (أصل التفاعلات الحيوية ونشأة الحياة) ، وبالتالي فإنها قد استبدلت " الإله " بـــ " **المادة والقانون الطبيعي** " ، والتساؤل البسيط حول موجد المادة والقانون الطبيعي .. يقود مباشرة إلى وجود " الله " (ﷻ) . أي أن " الله " (ﷻ) يجب أن يكون موجودا في الفلسفة الوجودية كما هو موجود في فلسفة الظاهرات ، ولكن الجهل المركزي لفلاسفة الوجودية هو الذي يقود لإنكار وجود الله (ﷻ) . ولكن تبقى المشكلة قائمة في الفلسفتين ــ حتى في حالة التسليم بوجود " الإله " في الحالتين ــ فهل الإله هو " **ذلك الخروف ذو السبعة قرون .. كما ورد شكله في الديانة المسيحية ..؟!** "

والآن آن لنا أن نسأل هؤلاء الفلاسفة (العقلاء منهم وغير العقلاء معا) : ماذا يجنى الإنسان من وراء هذه المعرفة أو تلك (أى الماهية قبل الوجود أم الوجود قبل الماهية) ، وخصوصا إذا ما كانت الفلسفتان تقودان إلى : " إله " عبارة عن " خروف له سبعة قرون " ..!!

ثم ؛ هل ستقودنا هذه المعرفة أو تلك إلى معرفة وجود الإنسان ومصيره ..؟! أم سيكتفون بأن يقولوا ببلاهه بأن الإنسان عدم ، لا وجود له وينكرون هذا الحضور . وأن الإنسان لا مصير له .. وينكرون علينا وعينا الفطرى بإدراك الخلود ..!! ثم ماذا نفعل عندما يدركنا الموت حقيقة .. ونقف وجها لوجه معه ..!! أسنقول مثل ما قال سارتر ــ هذا الأعمى المستعمى مؤسس هذا الخلط ــ أنقول لمن حولنا .. إحضروا لنا قسا حتى نعترف له بهزيمتنا أمام الموت أملا فى النجاة .. وأى نجاة هذه فى ذهابنا إلى الخروف ..!! فأى هراء هذا الذى يقول به الفلاسفة ..!! وأى خطل وأى خلط هذا الذى يتيه فيه الإنسان ..!! لقد كاد الإنسان هذا

أنا وأنت ومحمد وعلى وجورج .. ويرى الفلاسفة السابقون على الوجوديين ، أن الماهية سابقة على الوجود . فمثلا ماهية المدرسة سابق على وجودها . لأن قبل أن توجد المدرسة ، كان هناك من قرر بناءها ، والهدف منها ، ثم قام أحد المهندسين بتصميمها ، وتحديد عدد حجراتها والأدوار التى تتكون منها .. إلى آخره . وبهذا المعنى نرى أن الماهية تسبق الوجود تعني وجود الخالق . وعلى الرغم أن الوجودية تتفق مع الفلسفات الأخرى فى القول بأن ماهية الأشياء تسبق وجودها ، إلا إنها تستثنى من ذلك الإنسان . فترى أن وجوده يسبق ماهيته ، وبهذا تلغى فكرة الخالق ــ أى صاحب القرار الموجد للإنسان ــ ضمنيا .

الكائن أن يكون مغيبا عقليا بإرادته ..!! ولاهث وراء سراب من المعرفة لا قيمة لها ، كما ينبهنا الله بقوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾

(القرآن المجيد : النور {٢٤} : ٣٩)

[التفسير : قيعة جمع قاع (كـ : جيرة جمع جار) والقاع : ما انبسط من الأرض واتسع وفيه تحدث ظاهرة السراب]

إن غياب الهدف فى الفلسفة هو أحد سماتها المميزة . فلا يكفي أن يقول الفلاسفة أن هدف الفلسفة هو المعرفة ، والمعرفة هي التي سوف تقود الإنسان إلي السعادة المطلقة . لأننا سوف نقول لهم .. حسنا ..!! اخبرونا الآن ــ أيها السادة ــ ما هى سعادة الإنسان ، باعتبارها الهدف النهائى للفلسفة لديكم ..؟! وبديهى لن نجد لديهم إجابة ..!! لأن السعادة ليس لها تعريف لدى الفلاسفة ، وليس هذا فحسب ، بل أن الإنسان نفسه ليس له تعريف فى الفلسفة .. بإستثناء أن يكون نجارا أو زبالا أو فيلسوفا .. كما تعرفه بهذا الفلسفة العبثية .. أقصد كما تعرفه بهذا الفلسفة الوجودية ..!! أما إذا قال الفيلسوف أنه يريد بفلسفته تخليص الإنسان من خوف الموت ــ الفطري ــ الكامن فيه [١٠٣] ..!! فنقول له بأن هذا يستلزم معرفة الموت وما بعد الموت . ويحق لنا أن نسأل الفيلسوف إذا كان هذا هو غرضه فعلا ؛ فما هو العلم الدنيوى الذى يستند إليه ــ فى فلسفته ــ والذى تكون جذوره فى عالمنا هذا ، كما تمتد فروعه لتعبر

---

١٠٣ كمحاولة للتخلص من هذا الخوف قام نيتشه بتأسيس عقيدة تعرف باسم : " العود الأبدى " ؛ وهى عقيدة تماثل ــ فى جوهرها ــ تناسخ الأرواح فى عقائد الهند الكبرى كالبوذية والهندوسية ، ولكن بمفهوم أعم وأشمل من تكرار حياة الفرد . فعقيدة نيتشه تقول يتكرار الكون وما فيه على نحو متواصل وأبدى ، أى أن الكون يتكرار بكل ما فيه بما فى ذلك الإنسان وحياته وأعماله بصفة دائمة كلما إنتهى . ويقول نيتشه بأن الفترة بين خمود الوعى (أى الموت) وعودة ظهوره مرة أخرى عند تكرار الكون لا يقاس بزمن ، بل هى كوميض البرق ، ما دام الوعى الذى يحس بالزمن ويقيسه مختفيا خلالها . ومعنى ذلك أن الميلاد الجديد ــ بالنسبة إلينا ــ يتلو الممات مباشرة . ولم يقل نيتشه بأن عودة الإنسان سوف تصحبها ذاكرة ما يمكن أن يستفيد منها المرء فى الحياة التالية ، وبهذا لا يكون هناك إتصالية ما بين حيوات الفرد المتكررة . ولم تتجاوز " عقيدة نيتشه " هذه عن الفكر العشوائى الذى لا تؤيده ــ حتى ــ فطرة ما أو إحساس صادق يمكن الركون إليها ، كما لا يوجد لها براهين ما يمكن أن نعول عليها . وبديهى لم يتخلص نيتشه من عقدة الخوف وانتهت حياته بالجنون التام . وتخضع " عقيدة نيتشه " لنفس عيوب ديانات الهند الكبرى ، كما تخضع لنفس النقد الذى سبق التعرض له ــ عند مناقشة هذه الديانات ــ فى " الفصل الثانى " من هذا الكتاب .

الحياة لترينا الموت وما بعد الموت ؟! وبديهى لن تكون هناك إجابـــة صحيحة لمثل هذا السؤال .

ففى الواقع ؛ إن الإنسان لا يملك إلا العلوم الرياضية والفيزيائية وتطبيقاتهما المختلفة ، والتى يمكن أن يرى فيهما بعض النبوات الدنيوية والمحدودة معا (**فهذا كل ما يملك الإنسان من ضعف ..!!**) . وهنا ينبغى أؤكد للرياضيين وغير الرياضيين ، على أن الرياضة هى الدائرة المغلقة التى لا تقدم كثيرا للإنسان نحو سبر غور معرفة ما يمكن أن نعول عليها فى معرفة الموت وما بعد الموت .

فجميع " القضايا الرياضية " هى القضايا التى يمكن ردها إلى صيغة " أ هو أ " بتكرارية منفصلة توحي بالتباين والتجديد ، وذلك على الرغم من سكونها وسكون الموت القابع فيها . وبهذا فالبدء بعالم الواقع فى القضايا الرياضية لن ننتهى منه إلا بعالم الواقع ولا نزيد . وبهذا لن يتقدم الإنسان بهذه المعرفة قيد أنمله نحو سبر غور معنى الموت وما بعد الموت .

أما **المعرفة الفيزيائية** فلا تعدو عن وصف العالم الظاهرى ، أو العالم الفيزيائى الواقع فى قالب رياضى بحت . أو بمعنى آخر فإن المعرفة الفيزيائية هى معرفة القانون الرياضى أو الصفة الرياضية التى تحكم العلاقات المتبادلة بين متغيرات الظاهرة الطبيعية فحسب . حيث يسمح هذا **القانون الرياضى/الفيزيائى** الخاص بالظاهرة (أو أي ظاهرة ما) بتطبيقه فى مجالات أخرى غير المنطقة الأولى للظاهرة نفسها ، حيث تكون نتائجه ــ فى الحيز الآخر ــ بمثابة النبوات العلمية التى تمثل التقدم العلمى المرتقب فى القطاعات الأخرى . ولكن هذه النتائج لا تتجاوز أرض الواقع أيضا الذى نحيا عليه ، أو الكون الحالى الذى تحكمنا قوانينه الفيزيائية السرمدية .

وفى الإجمال أقول ؛ أن النبوات العلمية أو الفيزيائية هى نبؤات تنبع من أرض الواقع وتنتهى فى أرض الواقع ، حتى وإن بدى لنا ــ عن بعد ــ أنها تشير إلى عوالم أخرى ، فإننا لا يمكن إدراك تفاصيل قليلة أو كثيرة عن هذه العوالم . ولهذا ففى جميع الأحوال لا تستطيع أى نظرية فيزيائية سبر غور عالم ما بعد الطبيعة والتنبأ بما فيه بشكل محدد ويدعو إلى الثقة والإطمئنان إلى ما ننتهى إليه من نتائج . وبهذا لا تبعدنا المعرفة الفيزيائية عن حواسنا كثيرا ، وبهذا لا تصلح لمعرفة الموت وما بعد الموت .

فماذا بقى ــ إذن ــ للإنسان ؟ أقول : لقد بقى للإنسان " **الدين** " نفسه . والدين هنا ، ليس بمفهوم " **القضايا الغيبية** " ولكن بمفهوم " **القضايا العلمية الكلية** " التى توجد أصلها فى أرض الواقع وتنتهى فروعها إلى الغيب وما بعد الغيب . وبديهى يلزم الإخبار عن هذه القضايا من يملك " **علم الإمتداد المطلق** " ، أى الذى يملك رؤية العوالم المختلفة والطبيعة المغايرة لكل منها ومدى تغاير الإنسان مع كل منها مع ثباته الأبدى والسرمدى فى جوهره . أى يجب أن يكون المخبر عن هذه القضايا هو الخالق المطلق ، أى هو :

﴿ ... اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الوَاحِدُ القَهَّارُ (١٦) ﴾

(القرآن المجيد : الرعد {١٣} : ١٦)

أو :

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذى لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذى لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلاَمُ المُؤمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (٢٤) ﴾

(القرآن المجيد : الحشر {٥٩} : ٢٢ – ٢٤)

[عالم الغيب : هو عالم ما بعد الطبيعة / عالم الشهادة : هو العالم الفيزيائى الذى نحيا فيه ، أو كوننا هذا]

وبهذا تصبح " **القضية الدينية** " قضية علمية كلية لواقع كلى لا ندرك منه إلا جزئية فقط ، يكون امتدادها الطبيعى غير مدرك ، ولكن يصبح الوجود شاهد الصدق عليها بدلالات فيزيائية ورياضية متفق عليها فى أسلوب البرهنة ، كما لا تحتمل الشك أو التأويل بغير الحق .

والآن وبعد استيعاب ما سبق عرضه .. فأقول : أين الوعى الإنسانى ؟! .. وأين العقل الإنسانى المغيب فى فلسفاته المحدودة ؟! والتي لا يمكن التعبير عنهما بأي صورة رياضية ما ..!! لذا ينبغى أن أؤكد أن على الفيلسوف أن يحدد لنا قبل أن يبدأ فلسفته أولا غاياته ويخبرنا بها ، حتى ندرك وندرى فى أى طريق هو يسير ، وفى أى إتجاه يحاول أن يأخذنا معه .. كما يجب أن يخبرنا على أي علم يستند إليه ..؟! حتى لا تؤخذ آراؤه الطابع الجزافى المنفصل عن أرض

الواقع ، وبهذا لا يمكن أن نعول عليها كثيرا أو قليلا ، فى تحديد وجودنا والغايات من خلقنا . لهذا يجب على الفيلسوف أن يحدد لنا الآتى :

أولا : ما هو الإنسان ؟ (ولن نقول له ؛ ما حقيقة وجوده ؟ ومن أين أتى ؟ باعتبار أن هذه الأسئلة غاية نهائية مطلوب الإجابة عليه) . فعلى الفيلسوف إن أمكن ــ ولن يمكن ــ أن يعرف الإنسان بدقة كافية ، حتى يكون على دراية عما يتكلم عنه [١٠٤] . فكما سنرى ، إن غاية معرفة الفلاسفة عن الإنسان هو **أنه كائن موجود** ، أى أن الفلاسفة موجودين ، كما قال بهذا ديكارت . وحينما قال ديكارت مقولته الشهيرة : " **أنا أفكر إذن أنا موجود** [١٠٥] " ، صفقت له البشرية وأثنت عليه ، وقالت بأنه **أبو الفلسفة الحديثة** ، لأنه قال لنا بأننا موجودين ..!! ويالها من مقولة ، ويالها من معرفة كانت غائبة عنا حقا ..!! فلم نكن نعلم بأننا موجودين حتى قال لنا بهذا ديكارت أبو الفلسفة الحديثة ..!!

وليت الأمر اقتصر على ذلك ، بل أتى " **ألفريد جولز آير** " فى الفلسفة المعاصره (فى الفلسفة الوضعية المنطقية : **Logical Positivism**) ، كما رأينا ، ليناقض ديكارت **ويقول** " **أنا أفكر إذن أنا موجود** " **هو فرض خاطىء ، فليس من الضرورى أنا أفكر ، أن يتبع هذا أن أكون أنا موجودا ..!!** وهكذا يعلق آير وجود الإنسان مرة آخرى على براهين أخرى ..!! وهكذا أعادنا **ألفريد جولز** آير إلى الضياع والوحشة مرة أخرى .. وأصبحنا لا ندرى .. من وجهة نظر الفلاسفة ..!! إن كنا موجودين حقا ؟! أم نحن غير موجودين ؟!

ثانيا : هل الفلسفة ــ أو حتى المعرفة ــ التى ينادى بها الفيلسوف سوف تقود الإنسان فعلا إلى معرفة حقيقته ، بمعنى معرفة حقيقة وجود الإنسان ومصيره (ولن أقول وماهي الغايات من خلقه ، فقد يكون الفيلسوف غير مؤمن بوجود الخالق ..!!) ..؟ أم إن الفيلسوف نفسه ضال ومضلل .

---

[١٠٤] سبق تعريف الإنسان من واقع الفكر القرآنى في بند ٣ السابق .

[١٠٥] وهو البرهان المشهور باسم " الكوجيتو " ، أى برهان وجود النفس . وبديهى إن معرفة كهذه لا تغنى ولا تسمن من جوع . فيمكن أن نقول حسنا ، لقد عرفنا إننا موجودون ، ولكن من نحن .. ومن هو الإنسان ؟ ويصبح التعريف مفتوح مرة أخرى على مصراعيه ، لأن هذه المقولة لم تؤدى إلى تعريف ما يمكن أن يعول عليه ..!!

ثالثا : إذا ما تشدق الفيلسوف وقال : **إن الغرض من فلسفته هذه ، هى أن يقود الإنسان أو يقود البشرية إلى السعادة الحقة** ..!! فأقول له : ويحك .. أكيد أنك تمزح أو تكذب أو كلاهما معا ..!! فأنت لا تعرف للسعادة معنى ..!! كما وإنك لا تعرف للسعادة طريقا ..!!

ولم يحدث ، حتى الآن ، **أن قام واحد من الفلاسفة بـ " تعريف السعادة "** [١٠٦] أو حتى تحديد منظور نسبى لها على نحو مقنع ومتفق عليه من نسبة معقوله من البشر ..!! وبذلك لا يعى الفلاسفة ماهو الهدف النهائى والمنشود من سعيهم ؟ كما لا يعوا فى أى طريق يسيرون ؟ وإن ساروا ؟ لا يمكنهم التنبؤ إلى أين ينتهى بهم المقام فى هذا الطريق ..!!

ولنا أن نسأل الفيلسوف سؤالا أخيرا حول هذا المعنى فنقول له : هل يكفى للإنسان ــ والموت يتراقص من حوله ويملأ جوانبه ــ أن يعيش فى " **جمهورية أفلاطون** " ذات نظام الحكم الديكتاتورى ــ كما رأينا ــ حتى يدرك الإنسان حقيقتة ؛ أى حقيقة وجوده وحقيقة مصيره ، وحتى تتحقق له السعادة المنشودة ..؟! أم هل يكفى للإنسان ــ والفناء يغلفه ظاهرا وباطنا ــ أن يعيش فى **المجتمع الشيوعى** ــ ليتم توزيع الخبز عليه بالتساوى مع باقى أفراد **القطيع الحيوانى/البشرى** ــ حتى يدرك حقيقتة ، وحقيقة وجوده وحقيقة مصيره ، وحتى تتحقق له السعادة المنشودة ..؟! بديهي .. لا !!

---

[١٠٦] فى الواقع ، تخضع السعادة لحالة فيزيائية هامه تعرف باسم حالة : " الإتزان الغير مستقر : The state of Unstable Equilibrium " . وخير مثال لتشبيه هذه الحالة هو : وجود قمة جبلية بين واديين ، فإذا ما وضع حجر ما على القمة الجبلية فسوف يستقر عليها طالما لم يحركه أحد من مكانه ، وتعرف حالة الحجر فى هذا الوضع باسم حالة الإتزان غير المستقر ، لأن مع وجود أدنى تغير فى مكان الحجر ، فسوف يتدحرج الحجر من قمة الجبل ليستقر فى قاع أحد الواديين ، حيث يعرف فى هذه الحالة ، أى حالة وجود الحجر فى قاع الوادى باسم : " حالة الإتزان المستقر : The state of Stable Equilibrium " . لأنه سوف يكون أكثر إستقرارا فى هذا الوضع ، لأن عند تحريكة من مكانه هذا ثم تركه ، نراه يعود إلى نفس المكان ، أى إلى قاع الوادى مرة أخرى .

والقمة الجبلية فى هذا التشبيه هى سعادة الإنسان ، والواديين هما المعاناة التى يعيشها الإنسان . وعلى هذا فـ " السعادة " لدى الإنسان هى حالة من حالات الإتزان غير المستقر ، بينما " المعاناة " لدى الإنسان هى حالة من حالات الإتزان المستقر . والإنسان فى رحلة الحياة يتحرك بين قمم السعادة ووديان المعاناة ، ويكون أكثر إستقرارا على المعاناة ، فالأصل هو المعاناة (الكبَدْ) . وهذا الفكر مستمد مباشرة من " القرآن المجيد " . أما تعريف السعادة وكذا تحويل حالتها من حالة الإتزان غير المستقر إلى حالة من حالات الإتزان المستقر ، فلا تأتي إلا من خلال ما يعرضه الفكر الإلهي على الإنسان .

فالحقيقة ــ وبالفطرة ــ نجد أن سعادة الإنسان ترتبط بشكل مباشر في القرب من خالقه .. كما جاء في قوله تعالى ..

﴿ .. فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧) ﴾

(القرآن المجيد : طه {٢٠} : ١٢٣ – ١٢٧)

[ومن أعرض عن ذكري : تشير إلى الابتعاد عن ذكر الله ــ سبحانه وتعالى ــ والبعد عنه / الضنك : الضيق .. وقيل العذاب / أسرف : بالشرك بالله / ولعذاب الآخرة أشد وأبقى : من عذاب الدنيا]

فكما نرى من النص الكريم السابق أن السبيل الوحيد للوصول إلى السعادة الحقة هو في القرب من الخالق ، أن في القرب من الله (ﷻ) واتباع منهاجه ، لأن الأصل في الخلق هو التعب والمشقة (لحكمة الابتلاء أو اختبار الإنسان في حمله للأمانة على النحوالسابق ذكره) كما جاء في قوله تعالى ..

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) ﴾

(القرآن المجيد : البلد {٩٠} : ٤)

والكبد : هو المعاناة والمشقة .. ولا سبيل لملافاة هذا الوجود إلا في القرب من الله ، سبحانه وتعالى ..

٦. بين الدين والفلسفة ..

كما رأينا أن غاية فكر الفيلسوف ــ الطفل ــ **كارل ماركس** [١٠٧] هو أن المجتمع البشرى يتطور بسلسلة من التناقضات ، بين الدعوى ونقيضها لينتهيا بالمركب الجامع لهما . لذا نجده يقول بأن المجتمع الرأسمالى (أى الدعوى : **Thesis**) ، يحدث نقيضة (أى نقيض الدعوى :

---

[١٠٧] راجع كارل ماركس فى الفلسفة المادية .

Antethesis) وهو (البروليتاريا : Proletariat) ــ وهى الطبقة الدنيا من العمال والكادحين ــ التى تنقض هذه بدورها إلى تقويض الرأسمالية . ثم تنتهى الدعوى ونقيضها بالمركب الجامع لهما وهو المجتمع الشيوعى اللاطبقى . ولم يتجاوز فكر هذه الفلسفة ، عن فكر المعادلة الحسابية البسيطة : [١ + (-١) = صفرا] ، ليخلق لنا هذا الفيلسوف مجتمعا من اللصوص والأفاقين والسفاحين والقتلة [١٠٨] ..!! فهذا هو ذروة علم الإنسان ..!! ولهذا يقول لنا المولى عز وجل :

﴿ ... وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (٨٥) ﴾

(القرآن المجيد : الإسراء {١٧}{ : ٨٥)

وليس معنى هذا ــ كما سبق وأن ذكرنا ــ أن علم الإنسان متناه ، بل أن المولى عز وجل يقرر لنا أن علمنا لامتناهى كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ ... وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾

(القرآن المجيد : يوسف {١٢} : ٧٦)

و" **عليم** " ليس من أسماء الله الحسنى ، بل " **العليم** " هو الذى من أسماء الله الحسنى . والأية السابقة هى تعريف لـ " **لانهائية العلم بشكل مطلق** " أو بشكل فى غاية من الصراحة ، كما سبق وأن أشرنا إلى هذا من قبل . وهكذا يقرر الله (ﷻ) باللامتناهى العلمى للإنسان ، كما يقرر بأن الإنسان حتى فى نهاية علمه لن يبلغ هذا اللامتناهى . وإن أدرك هذا اللامتناهى ، فلن يجد لديه إلا المتناهى ، أى القليل من العلم ، كما جاء فى قوله تعالى ﴿ .. وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ . وليست هذه فلسفة أو عرض غامض لفلسفة مبهمة ؛ بل هى تعبير رياضى بسيط يجد أصله أى رياضى عادى فى مفهوم وطبيعة **الدوال التقاربية** .

وهكذا تحمل كلمات الآيتين السابقتين (وهى إحدى عشر كلمة فقط) " **فكر القضية الغيبية الكاملة** " وهى : " **لانهائية العلم ومحدوديته فى نفس الوقت** " . ولكن الله (ﷻ) مع ذلك يضع هذه القضية بالكامل فى حيز عالم الشهادة ، أى فى حيز العالم الفيزيائى المحسوس ، كما

---

١٠٨ كما سبق وأن ذكرت ، فإن عدد القتلى الذين قتلهم ستالين (١٨٧٩ - ١٩٥٣) ، أحد أئمة الحزب الشيوعى ودكتاتور الإتحاد السوفيتى سابقا (وأسمه الأصلى يوسف فيسرابوفتش جوجا شفيلى) بلغ حوالى عشرين مليونا من المواطنين السوفيت . وكما هو معروف ، أنه لا وجود للحرية الفردية أو الديمقراطية فى دستور الشيوعية (أى الإتحاد السوفيتى سابقا) .

نرى هذا كله وندركه من واقع نحياه ، ليكون لنا فى هذه الكلمات السابقة .. التجربة ويكون لنا فى هذه الكلمات البرهان الكافي .. على صحة وصدق هذا الكتاب العظيم ، أى القرآن المجيد . ويكون الإنسان هو خير شاهد على هذا .. وعلى نفسه .

وقد يحتج الفلاسفة .. وقد يحتج الإنسان .. لأنه لا يرى ما نرى .. ولا يرى فى هذا دليلا كافيا ..!! فنقول له حسنا .. أتريد دليلا آخرا ..؟! وإن كان هذا ليس مقامه ، فيقول نعم ، فنقول له إسمع .. إلى موعد يوم القيامة .. إحدى " **قمم القضايا الغيبية** " بالنسبة للإنسان ، والتى يضعها المولى (ﷻ) **بكاملها** فى عالم الشهادة أى فى عالم المحسوسات .. وليت الإنسان يدرك هذا .. ولنستمع معا إلى قوله تعالى :

﴿ ... حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾

(القرآن المجيد : يونس {١٠} : ٢٤)

[أمرنا : قضاؤنا بهلاك من عليها / حصيدا : مقطوعا ومقلوعا من أصله / كأن لم تغن : كأن لم تكن قائمة من قبل على الأرض]

جزء فقط من آية .. وليست آية كاملة ..!! لا إله إلا الله .. وتعقد الدهشة لسانى عن الكلام عن هذا الإحكام في العرض ..!! ففى قوله تعالى ﴿ ...حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ... ﴾ يعنى بأن الإنسان سوف يصل إلى غاية التقدم العلمي والتكنولوجي على حد سواء ، أى سوف يصل الإنسان إلى ذروة تقدم العلم النظرى والعلم التطبيقى على حد سواء ، كما ستصل الحضارة البشرية من الناحية العمرانية إلى أوجها ، أى إلى ذروتها على سطح هذا الكوكب .. كوكب الأرض .. وهذا هو الحادث فعلا ، فنحن نسير بخطى متسارعة فى هذا الاتجاه ..

ثم نأتى إلى قوله تعالى ﴿ ... وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا ... ﴾ ، وأهلها هنا ، هم أهل الأرض ، أى البشرية جمعاء . وتعنى هذه الكلمات بأن الإنسان **سوف يقترب من غاية أو ذروة التقدم العلمى ، وبهذا التقدم سوف يعتقد الإنسان ، أو بمعنى أدق سوف يظن الإنسان** ، بأنه قد سيطر على هذا الكوكب ، كما سيطر على كل ظواهره ، حتى أصبح يعتقد أنه يتحكم فى حدوث هذه الظواهر . وبديهى إننا لن نقترب من هذا المعنى إلا بعد غاية التقدم العلمى ، وغاية التقدم

الحضارى على مر تواجد الإنسان على سطح الأرض .. ولكن هذا كله يدور فى فلك المتناهى أى القليل من العلم ﴿ ... وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ .

والآن ؛ وجها لوجه مع اللامتناهى العلمى الذى ينتهى أو يؤول بالإنسان إلى المتناهى العلمى ، أو المحدود أو القليل ، لأننا بعد كل هذا التقدم سوف ندرك .. أننا ما زلنا ذلك الإنسان العاجز الذى لم يدرك إلا القليل من العلم . وتبقى ﴿ ... وَظَنَّ أَهْلُهَا ... ﴾ ــ فى الآية السابقة ــ شهادة صدق على عدم إدراك الإنسان للقيم النهائية لهذا اللامتناهى على الرغم من قلته ، فمازال هناك قيم يمكن إدراكها ، ولكنها قيم صغيرة ولا ترضى غروره ..!!

وهنا يقترب الإنسان إلى التناهى من هذا الوجود .. ولم يبق له حينئذ إلا ما بقى .. وهكذا يصبح الوجود سجنا قد أغلقه الله على الإنسان .. وبهذا لم يعد هناك معنى لهذا التناهي .. وبهذا لم يعد هناك معنى حتى للأمل ، كما لم يعد هناك معنى لابتلاء الإنسان أو اختباره فى حسن الأداء .. ولتنته القصة إذن ، قصة هذا الوجود الجزئي للإنسان من على سطح هذا الكوكب ــ كوكب الأرض ــ والتى تأتى بها الجزئية الثانية من الآية الكريمة السابقة ، فى قوله تعالى ﴿ ... أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ... ﴾ .

وقد يتنبه الغافل أو قد لا يتنبه إلى الدقة المتناهية فى قوله تعالى ﴿ ... أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا ... ﴾ والتى تعني بأن قضاء الله سوف يأتي بالخاتمة إلى الكرة الأرضية فى وقت واحد .. أى عندما يكون نصفها ليلا .. ونصفها الآخر نهارا ..!!! وينهى الله (ﷻ) هذه الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ ... كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، لعل الإنسان يتفكر فيما يسمع ..وفيما يرى ..!!

ولتتداخل الشبكات التلفزيونية ومحطات الإذاعة فى تلك اللحظات الأخيرة لوجود هذا الإنسان على سطح الأرض ، ولتتناقل الإذاعات المحلية والعالمية " الأخبار " الآن ، لتعلن هذه اللحظات الأخيرة .. لحظات النهاية .. نهاية هذا الوجود الإنسانى أو الجنس البشرى [١٠٩] . ويبين لنا المولى عز وجل هذا فى قوله تعالى :

---

[١٠٩] جميع التفاصيل العلمية المذهلة وبدقة متناهية ، لتلك اللحظات الأخيرة لنهاية الجنس البشرى من على كوكب الأرض ، سوف يتم مناقشته بإذن الله فى كتابات تالية .

﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) ﴾

(القرآن المجيد : الزلزلة {٩٩} : ٤ - ٥)

هذه هى إحدى قمم " القضايا الغيبية " أى " قضية يوم القيامة " ووقتها يضعها المولى (ﷻ) بالكامل فى عالم الشهادة (أى العالم المحسوس) .. ثم ألا ترى معي في قوله تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ تعني أن القنوات الإخبارية .. الجزيرة .. والعربية .. و .. CNN .. BBC وغيرها من القنوات .. سوف تتداول هذا الخبر على نحو متواصل ..!! وليعيد الفيلسوف ــ والعامة أمثالى ــ قراءة قوله تعالى :

﴿ ... حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤) ﴾

(القرآن المجيد : يونس {١٠} : ٢٤)

لعلنا ندرك ما نسمع أو نعى قليلا ما يقوله لنا الله (ﷻ) فى محكم تنزيله . فهل وعى الإنسان هذا .. وهل وعى الفلاسفة هذا .. أم مازالوا يلهثون وراء سراب اسمه نظرية المعرفة أو الإبستمولوجيا ، كما يحلو للعامة تسميتها .. وهم لم يتنبهوا أو يدركوا قوله تعالى ﴿ ... كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

ثم يبين لنا المولى (ﷻ) بأن الماضى والحاضر سوف يتصلان فى تلك اللحظات الأخيرة لوجود الإنسان .. ليبدءا معا رحلة المستقبل .. **ليبدأ الله (ﷻ) الفصل الثاني من السيناريو الإلهي .. لهذا الامتداد الزماني والمكاني للكل .. أى لكل البشرية** ، ولكن بمفهوم أعم وأشمل من هذا الوجود القاصر وهذا التناهى الجزئى .. لنبدأ معا لامتناهيا أخرا ..!! كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ ... وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾

(القرآن المجيد : الواقعة {٥٦} : ٦١ - ٦٢)

فهذا هو غاية علم الإنسان .. إنها النشأة الأولى فحسب التى نحياها الآن على سطح هذا الكوكب .. كوكب الأرض . أأدرك الإنسان بعض من معاني التطور العريض الذى يقول به المولى

(ﷻ) عز وجل ..؟! إذا ما علم أن أحد صور تطور الإنسان ــ فى الآخرة ــ هو ما جاء فى قوله تعالى عن أهل الجنة :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ﴾

(القرآن المجيد : الأعراف {٧} : ٤٣)

و " **الغل** " هو الحقد والضغن والكراهية ، أو قل هو " **غريزة القتال لدى الإنسان** " . **ونزع غل ما فى الصدور هو نوع من تطور النفس البشرية** ، وهذا ليس تطورا ماديا (وكما سنرى فى كتابات تالية أن الروح لا تتطور) .. أأدرك الإنسان إذن الفجوة بين ما جاء به القرآن المجيد ، وبين ما جاء به " داروِن " من معانى [١١٠] ؟

وهل أدرك الإنسان معنى قوله تعالى : ﴿ ... وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ ، أى أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ لم يمنحنا ، كما لم يمنح داروِن إلا القليل من العلم .. ليستمكل لنا الله ــ سبحانه وتعالى ــ بطريقة مباشرة الكثير ..!! وتذرف العين دمعة ألم ، تملؤها الحسرة على هذا الإنسان .. لتتناغم النفس مع النص الإلهى ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) ﴾

(القرآن المجيد : يس {٣٦} : ٣٠)

وتطول حيرة الإنسان ، وتقصر حياته ، ولكنه يصر على إساءة التقدير ، كما يصر على جهله واستكباره ، ولتعيد دورة الحياة (**The circle of life**) نفسها ، وليكرر الإنسان نفسه ، ليقول عنه المولى ــ عز وجل ــ اليوم ، كما قال عنه ــ سابقا ــ لرسوله الكريم ..

﴿ كَلَّا إِنَّهُ (أى الإنسان الكافر) كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا (١٦) سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ (٢٤) إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ (٢٥) سَأُصْلِيهِ

---

[١١٠] أنظر الملحق الرابع من هذا الكتاب لمزيد من التفاصيل عن نشأة الإنسان وتطوره .

سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرَ (٢٧) لاَ تُبْقِي وَلاَ تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) ﴾

(القرآن المجيد : المدثر {٧٤} : ١٦ - ٢٤)

[فقتل كيف قدر : أى فلعن تقديره واستحق عليه الهلاك / عبس : قبض ما بين عينيه / بسر : كلح وجهه / أدبر : أعرض عن الإيمان / سحر يؤثر : سحر ينقله عن غيره / سأصليه سقر : سأورده جهنم ، لأنه لم يحقق الغايات من خلقه / لواحة للبشر : (أحد معانيها) محرقة لجلود البشر]

ولم يدرك بعد هذا الفيلسوف التائه قوله تعالى ﴿ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ . كما لم يدرك قوله تعالى : ﴿ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ [١١١] ﴾ ، كما لم يدرك الفيلسوف نفسه .. وحيرته .. فى تلك الكلمات القابضة والحاكمة له ولسلوكه الحائر .. ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ... فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ .. ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ .. ثُمَّ نَظَرَ .. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ .. ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴾ . فهذه هى حقيقة الإنسان ..!! ويقف الفيلسوف المشرك يغلفه العجز من كل جوانبه ، وتحيط به الحيرة من كل اتجاه ، يحك رأسه كالأبله .. ولا يدرى ماذا يفعل ..!! ثم نراه يدبر ، أى يعطى ظهره لهذا الكتاب العظيم وينصرف عنه ، ويستكبر عن الإيمان به ..!!

﴿ ... وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ﴾

(القرآن المجيد : الحج {٢٢} : ٣١)

أى خر من عال بين جبال صلدة .. لا نهاية لها .. ورياح قاسية ... صفيرها يصم أذنيه .. تتخطفة النسور والجوارح من كل جانب ، وتصبح الحياة لديه ذلك الكابوس الذى لا نهاية له .. ولن يعى ما يعى .. ولن يدرك ما يدرك .. حتى قوله تعالى :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾

(القرآن المجيد : هود {١١} : ١)

---

[١١١] يمثل هذا الرقم واحد من " الأكواد الجينية : Genetic Codes " فى القرآن المجيد ، ويدخل من ضمن " الإعجاز العددي للقرآن المجيد " .

ولابد لى أن أشير هنا ؛ إلى أنه يكاد يكون من الغريب حقا أن تصل درجة الوضوح والاعتياد في البراهين القرآنية إلى حد الاختفاء والتلاشي ، أى نفس سمة الوجود الإنساني ذاته . لأنه قد يكون من الغريب حقا أن تصل درجة الوضوح الإنساني إلى الحد الذى نقول معه باختفاء البرهان الدال على وجوده ووجود خالق له . فبدلا من أن نقول أن وجود الإنسان لهو خير دليل أو خير شاهد على وجود " الله " (ﷻ) الخالق له ، أصبحنا نقول أن الوجود الإنساني هو خير دليل وخير شاهد على عدم وجود الله ..!! سبحانه وتعالى وهو الظاهر فوق كل ظهور ..

وهنا تصل درجة التماثل أو التطابق بين الوجود القرآني وبين الوجود الإنساني إلى ذروة التناهي . وهنا يصبح القرآن كائنا حيا ليس بمفهوم معاني كلماته المحكمة أو بمفهوم مفرداته الجزئية وتكاملها الوظيفى فحسب ، بل بمفهوم درجة وضوح الكينونة ذاتها أيضا . فالوضوح القرآني هنا يصل إلى حد إنكار التنزيل الإلهى له ، تماما كما يصل درجة وضوح الوجود الإنساني إلى حد إنكار الخالق له .. حتى ولو كان الوجود الفعلى لكليهما يتلألأ عرفانا بهذا الحق المطلق . وأعتقد أن هذا ليس فيه أى تجاوز لفظي أو أى غموض فلسفي ، بل هو واقع صدق يشهد على نفسه ، كما يشهد علينا نحن ــ بنو البشر ــ قصورنا الفكرى .. وقصور ما انتهينا إليه .

فكما رأينا ؛ أن الإنسان فى جميع فلسفاته .. اعتقد أن تحديد هوية أو توصيف نظرية المعرفة بدقة كافية سوف تقودة إلى معرفة الحقيقة المطلقة عن وجودة وعن مصيره ، وكذا الغايات من خلقة ، وقد يقوده هذا إلى السعادة المرجوة ، ولكن أخطأ الإنسان فى اعتقاده هذا . ونتيجة لهذا الاعتقاد فإننا نجد أن **جميع الفلسفات لم تتجاوز فى معناها عن محاولة توصيف أو تعريف المعرفة** ، وهل هى أصلها عقلى ، أم أن أصلها حسى أم أن أصلها مشترك ، أى الجمع ما بين العقل والحس . ولم يتنبه الإنسان ، سواء كانت المعرفة هذا أو ذاك ، فلا قيمة لما يعرف . فلا قيمة للإنسان أن يعرف أن أصل المعرفة هى بالعقل فقط ، أم إنها بالحواس فقط ، أو إنها تأتى بالجمع بينهما ، **لأن هذا لن يحسم موقفه من معرفة حقيقته هو**[١١٢] .. **ومصيره هو .. وكذا الغايات من خلقه هو** . فجميع هذه الأمور ليست أمورا ذاتية تنبع من داخل الإنسان ، بل هى أمور خارجية تأتى بالإخبار ــ الخارجى ــ المباشر والمستقل (أى **وجود مفارق**) عن فكر الإنسان .

---

[١١٢] أرجو التنبه إلى أن المعرفة العقلية هي أحد الأدلة الهامة على وجود الله ، سبحانه وتعالى ، ولكن هذا سيظل في إطار الشك لدى الإنسان ، ولن يحسم قضايا وجوده ومصيره .

وهكذا لم يتنبه الفلاسفة إلى أنهم حتى إذا ما انتهوا إلى توصيف نظرية المعرفة بالدقة الكافية ، فإن هذا لن يقودهم إلى تحديد هوية الإنسان والغايات من خلقه ، كما لن يقودهم هذا ، إلى فكر ما .. يذكر عن الله ..

فالإنسان في كل فلسفاته كمن يحاول توصيف جميع الخطوات اللازمة لبرهان النظرية .. وحسنا ما فعل ..!! ولكن أين هي النظرية ..؟! فالإنسان لم يتنبه ــ إلى الآن ــ وبكل أسف ، إلى أنه ليس هناك ثمة علاقة ما .. بين تحديد جميع الخطوات اللازمة لبرهان النظرية (أي نظرية) وبين النظرية نفسها .

وأكاد أسمع الفلاسفة يقولون ؛ إنك بهذا ترغمنا على قبول مبدأ الوحي الإلهي القادم من السماء (أي القول بوجود النظرية) . وها أنت قد عرضت هذا الوحي ــ في اليهودية والمسيحية ــ في الفصل السابق على هذا النحو الفكري المتردي ..!! فكيف لنا أن نقبل بمثل هذا التردي الفكري على أنه وحي إلهي قادم من السماء ..؟! فأقول له : ويحك ..!! كأنك لم تدرك حتى الآن ما تم كتابته عن الوحي الإلهي الحق الصادق القادم من السماء ، الذي يقول الله عنه في محكم تنزيله :

﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) ﴾

(القرآن المجيد : الحشر {٥٩} : ٢١ – ٢٤)

فإلى متى يظل الإنسان مستغلق الفكر ، تحت دعوى أن التجربة المريرة التي مر بها على يد الديانتين اليهودية والمسيحية ، هي التي جعلته ينفر من الدين الحقيقي ، ومن التدين ، ومن الوحي الإلهي الصادق القادم من السماء ..!! وإلى متى يظل الإنسان مستغلق الفكر تحت زعم أو دعوى أن هذه التجربة الفاشلة هي التي جرت عليه كل أذيال الخيبة والفشل التي نراها عليه الآن ، وهي التي جعلته لم يدرك الوحي الحقيقي القادم له من الله سبحانه وتعالى ..!! فهل وعى الفلاسفة معنى الآيات السابقة ومنها ﴿ .. وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أم أنهم سيظلوا بلا تفكير وبلا منطق ، وبهذا ينطبق عليهم قوله تعالى :

﴿ ... وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِـقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ... (٤) ﴾

(القرآن المجيد : المنافقون {٦٣} : ٤)

كأنهم خشب مسنده .. سبحان الله ..!! وهكذا يتردى الإنسان إلى درجة من الحضيض الفكري تصل به إلى درجة الجماد ، أى أقل من درجة الحيوان . وينبهنا الله ــ سبحانه وتعالى ــ جميعا بقوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَـــذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا (٨٩) ﴾

(القرآن المجيد : الإسراء {١٧} : ٨٩)

ولا أدرى متى سيتنبه الإنسان إلى هذه المعاني .

فعلى الإنسان أن يتنبه ، بل ويعي أيضا أن القضية الدينية الحقة ليست قضية صراع بين أيديولوجيات (Idiologies) فكرية ، بل هى قضية وجود الإنسان ذاته ، ومصيره هو ، والحكمة من خلقه . فهو الرابح الوحيد إذا ما أدرك هذه المعاني ..

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُـكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ .. .. (٤٧) ﴾

(القرآن المجيد : سبأ {٣٤} : ٤٧)

لأن إدراك الإنسان لهذه المعاني هو الذى سوف يعطيه الفرصة الوحيدة ــ فى أثناء حياته الأرضية ــ لتى يحقق الغايات من خلقة . كما وإنه هو الخاسر الوحيد إذا لم يدرك هذه المعاني .. لأنه لن يحقق هذه الغايات .. التى خلق من أجلها ..!!

وأخيرا أشير هنا ، وبعد أن قاربنا على الإنتهاء من هذا الكتاب ، إلى أنه ؛ على الرغم من قبول هذا الكتاب " **للمسلمة الأساسية** " التى تقول بأن : " الديانة الإسلامية هى ديانة صحيحة " ، وما يتبع ذلك من أن يكون " القرآن المجيد هو وحي إلهي صادق وقادم من السماء " ، إلا أن قبول هذه المسلمة مازال يعتبر قبولا معلقا ، على الرغم من كثرة الأمثلة التى سقناها هنا فى هذا الكتاب ، والتى تؤكد صحة نتائج هذه المسلمة ، وبالتالى صحة المسلمة نفسها . إلا أننا مازلنا نقول بأن القبول النهائي لهذه المسلمة قد أرجئ .. حتى الآن ..؟! لأن ــ فى الواقع ــ يوجد للقصة بقية أو يوجد للقضية بقية ، وهذه البقية يفرضها علينا وجود العلم الإنسانى

الموجود على الساحة البشرية ، والذى لم نتعرض له فى هذا الكتاب إلا من خلال شذرات عابرة لا تكفى بالإحاطة الكاملة بدور العلم والفيزياء فى المساهمة الفعلية والإيجابية فى إدراك صحة وصدق هذه المسلمة . لذلك كان لزاما علينا تقديم العلم البشرى كله فى صورة جرعة مكثفة ، كما فعلنا مع الفلسفة البشرية سابقا ، وأوضحنا مدى قصورها ، وقصور دورها وعدم جدواها فى تقديم أي عون حقيقي للإنسان نحو اكتشاف أي معرفة فعلية ، نحو الغايات الحقيقية من وجود الإنسان وخلقه ، وماهيته ، ومصيره . كما وإن هذه الفلسفات لم تقدم أى فكر يذكر ، أو حتى أي شئ يعول عليه نحو المعرفة الحقة بـــ " الله " ـــ سبحانه وتعالى ـــ وصفاته .

وكما سنرى فى الكتاب الآخر [١١٣] ، إن العلم ـــ منفردا ـــ لم ولن ، يقدم هو الآخر شيئا يمكن أن يعول عليه نحو معرفة الحقيقة المطلقة عن الله (ﷻ) وعن هذا الوجود . ففى الحقيقة ؛ إن الدين هو الذى يقدم للعلم ما ينبغي أن يفعله (الإنسان) من تجارب ، لكي يقود الإنسان إلى اليقين الكامل ، ونحو إدراك صحة الغايات من هذا الوجود . و بهذا المعنى يكون العلم هو التجربة الدالة ، أو هو البرهان اللازم على صدق وصحة المسلمة الدينية التى يقدمها الدين (الإسلامي) للإنسان .

أما العلم كفكر مستقل عن الدين هو لا شيء على الإطلاق ..!! كما وإنه لا يصلح لتقديم أى برهان أو حتى تقديم أى فكر يذكر عن وجود الإنسان ومصيره وكذا الغايات من خلقه . فالعلم بذاته قاصر عن أن يكون له الدور الإيجابى فى أن يقود الإنسان إلى حل لغز هذا الوجود ، أى وجود الإنسان ومصيره . فالعلم مستقل عن الدين هو بمثابة الجثة بلا حياة ..!! أو هو بمثابة التجربة المجردة التى ليس لها نتائج ، نظرا لغياب الهدف أو غياب المطلوب من هذه التجربة ، وذلك لغياب النظرية الحاكمه لها . فـــ " **العلم للعلم** " يمثل الإنسان المتحرك فى هذه الحياة بلا غايات أو هدف . أو أن " **العلم للعلم** " يمثل الإنسان المتحرك فى هذه الحياة تلك الحركة العشوائية التى ليس لها اتجاه لا يدرى معها الإنسان .. إلى أين تقوده هذه الحركة وإلى أين ينتهى به المقام .. حتى وإن أثمر ـــ العلم ـــ عن تحقيق بعض الرفاهيات المادية القاصرة ..!!

إن المنهاج الإلهى ؛ هو الدليل الذى يقود الإنسان وعلمه نحو غايات محددة ، أى نحو الغايات الكلية من وجود هذا الوجود ، وطبيعة هذا المصير . **فالإنسان والعلم بدون الله** ، ليس لهم غايات عليا .. وبهذا يصبح .. **الوجود للوجود** .. أو تصبح .. **الحياة للحياة** .. لتتحول الحياة بهذا المعنى إلى ذلك الكابوس المخيف أو ذلك العبء الثقيل الذى يحمله الإنسان على

---

١١٣ " الدين والعلم ... وقصور الفكر البشرى " لنفس مؤلف هذا الكتاب . مكتبة وهبة / القاهرة .

كاهله وينوء تحته ، والذى يجعل منه ذلك الإنسان الذى يتحرك فى هذا الوجود بلا هدف أو غايات ، شأنه فى ذلك شأن الحيوان والنبات والجماد .. حتى وإن كنا لا ندرك بحواسنا القاصرة أن الحيوان والنبات والجماد هم ــ فى الواقع ــ الصورة التكميلية ، أو الخلفية اللازمة فى بانوراما الوجود الإنسانى ، حتى يتبين له حقيقة وجوده وواقعه .. ولتبقى هذه الصور .. خير شاهد على جهل الإنسان وقصور فكره .. وليس الغرور إلا سمة من سمات الحمقى والجهلاء ..!!

وسوف نرى أن العلم الإنسانى كله يذوب ضعفا وهوانا وتواضعا وقلة ، كما يعكس حدود الضعف المتناهى لما هو عليه فكر الإنسان فعلا ، إذا ما قورن بما قدمه الله ــ سبحانه وتعالى ــ من علم لدنى للإنسان ، من خلال وحيه المطلق للرسول الكريم ، عليه الصلاة والسلام .

وتعجب .. ونعجب سويا ..!! لأن تعلم أن الله ــ سبحانه وتعالى ــ يطلب من الإنسان البرهان فى كل شىء ، حتى فى حالة الشرك به . أى حتى فى حالة " قضية الشرك بالله " ، فمطلوب من الإنسان البرهنة على صحتها أيضا ؛ كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ (١١٧) ﴾

(القرآن المجيد : المؤمنون {٢٣} : ١١٧)

فواضح من هذه الآية الكريمة أن جملة ﴿ ... ــ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ــ ... ﴾ هى ، فى الواقع ، جملة اعتراضية ، فى النص الإلهى . فكان يمكن أن ترفع هذه الجملة من الآية الكريمة ، وحينئذ يجرى النص على النحو التالى :

(ومن يدع مع الله إلها آخر "... " فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون)

وبهذا المعنى الأخير يتحدد عقاب الإنسان المشرك بالله على نحو مطلق . أى ليس هناك فارق بين من سعى إلى المعرفة الإلهية ولم يجدها ولهذا أشرك ، وبين من قبل الشرك كميراث عقائدى أحمق بدون تفكير . ولكن وجود مثل هذه الجملة الإعتراضية ﴿ ... ــ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ــ ... ﴾ ، لا تسوي بين الحالين ، بل تجعل من إمعان الفكر والبرهان اللازم لقضية الشرك بالله ، عوامل أساسية فى الحساب النهائي ــ أو الأخروي ــ للإنسان .

وهكذا ؛ حتى في " قضية الشرك بالله " ــ في الفكر الإلهي ــ مطلوب البرهان لها أيضا . فغير مقبول أن يشرك الإنسان ــ بالله ــ ببلاهة ، أو بدون إمعان للفكر ، أو بتغييب العقل ، أو أن يشرك الإنسان كنتيجة ــ أو حجة ــ لميراث عقائدى أحمق بدون إعمال العقل فيه . وبديهى إن السعي لإيجاد برهان للشرك بالله ، لن يؤدي بالإنسان المشرك إلا إلى الإيمان بالوحدانية والتفرد .. أى الإيمان بوحدانية الله وتفرده بالخلق ..

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) ﴾

(القرآن المجيد : الأنعام {٦} : ١٤٨ - ١٤٩)

[والشرك : هو الإتجاه بالعبادة (بجميع صورها) إلى غير الله سبحانه وتعالى / تخرصون : تكذبون]

فهل وعى الفلاسفة معانى تلك الآيات المحكمة ، أم إنهم مازالوا مغيبين . فهل وعى الفلاسفة قوله تعالى : ﴿ ... قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ... ﴾ ، وهل وعوا قوله تعالى : ﴿ قلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ... ١١٤ ﴾ ، والحجة البالغة هى البينة الواضحة والبرهان الدامغ .. الذى لا يأتى بعده برهان آخر ..

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا (١٧٤) ﴾

(القرآن المجيد : النساء {٤} : ١٧٤)

وهذا هو الفرق بين الدين والفلسفة .. إنه الفرق بين الله .. والإنسان ..!!!

---

١١٤ سنرجىء مناقشة ﴿ ... فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ إلى كتابات تالية إن شاء الله ، لارتباطها بقضايا أخرى مثل الحرية والجبرية ، أو التصيير (أو التسيير) والتخيير ، والحكمة من الوجود . وذلك على الرغم من المناقشة الجزئية التى تمت لبعض هذه المعانى فى هذا الكتاب ، إلا أن المعانى النهائية لا تأتى إلا من خلال المناقشة الكلية لهذه القضايا ، وبالتوسع المطلوب .

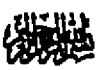

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أفَمَنْ أسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أم مَّنْ أسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ والله لاَ يَهْدِى القَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنُوا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إلَّا أنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) ﴾

(القرآن المجيد : التوبة {٩} : ١٠٩ - ١١٠)

صدق الله العظيم

[البنيان : قد يكون بالمعنى الحرفى له (كما هو الحال فى المسجد الذى حرض فيه ابن عامر الراهب المنافقين لبنائه بالمدينة لتكون العصبية الجاهلية موضوعها التفاخر بالمساجد) ، كما يمكن أن يكون البنيان أى نظام فكرى أو فلسفى أو اجتماعى يقول به الإنسان على نحو ما .. أو آخر / على شفا : على حرف أو حافة / جرف : من الآبار ما لم يبن له جوانب / هار : هائر من هار ، بمعنى قابل للإنهيار / ريبة : شك / تقطع : تتمزق وتتفرق]

خاتمة الكتاب

لقد قضت الحكمة الإلهية ألا تتقارب الأديان الموجودة على الساحة البشرية من الناحية الفكرية ..!! بل أن الفوارق الفكرية بين جميعها وبين الدين الحق أضخم من أن تحسب . كما قضت الحكمة الإلهية أن تضع كل البراهين اللازمة ، والخاصة بالحكم على صحة الدين وإدراك وجود الله ، فى حيز الشهادة كاملا وبلا غيبيات ..!! ولا يحول دون إدراك المرء لهذا ، إلا نظرته القاصرة للدين حتى الآن ..!! وذلك كناتج طبيعى للميراث الدينى الذى خلفته الأديان الوثنية (اليهودية والمسيحية) والموجودة الآن على ساحة الفكر البشرى ..!! وهي الديانات التي تؤصل للخطيئة وتموج بالخرافات والأساطير غير الواعية ..!! وكذلك قضت الحكمة الإلهية أيضا بأن يختبر الإنسان فيما هو دون ذكائه الفطري أو ملكاته الفكرية بكثير ، والتى ركبها الله ــ سبحانه وتعالى ــ فيه . وبعد أن فرغنـــا من قراءة هذا الكتاب ، يمكننا ــ الآن ــ أن نرى بوضوح الأتى :

أولا : أن " القضية الدينية " ليست " قضية غيبية " ، كما هو الاعتقاد الزائف فى هذا . بل هى ، فى الواقع ، " قضية يقينية " [1] ، بكل ما تحوى الكلمات من معنى عريض لها ، وبالتالى يمكن التثبت منها ، ومن صدقها إلى أى درجة مطلوبة من الدقة .

ثانيا : أن " القضية الدينية " هى " قضية علمية كلية " يحتل فيها الوجود الإنسانى ، والوجود الفيزيائى ، والوجود الكونى جزئية صغيرة لا تكاد ترى . ولا يحول دون إدراك المرء لهذا ، إلا النظرة القاصرة إلى الدين والفكر الدينى ، كناتج طبيعى للميراث الفكري الذى خلفته الأديان الوثنية والموجود الآن على الساحة الفكرية . كما لا يتجاوز معنى الفيزياء ، ومعنى الكون ، ومعنى الظواهر الطبيعية ، بل ومعنى الإنسان ذاته فى " القضية الدينية " ؛ إلا معنى التجارب المعملية المختلفة والمتباينة النتائج للدلالة على صحة " القضية الدينية " . وبهذا المنظور تكون " **القضية الدينية** " ؛ هى " **النظرية العامة** " التى تحدد للإنسان الغايات من

---

[1] أنظر مقدمة الكتاب للفرق بين " القضية اليقينية " و " القضية العلمية " .

نوعية التجارب التى يجريها كتطبيق قابل للملاحظة والتحقيق . ثم تتنبأ له ــ أى تتنبأ القضية الدينية للإنسان ــ مقدما بنتائج هذه التجارب ، لتكون دليل صدق على المسلمات الأساسية التى تقدمها ، أو تقول بها " القضية الدينية " . **وبهذا تصبح " القضية الدينية " هى " النظرية " ، كما يصبح العلم والوجود الإنسانى هما " التطبيق " .**

ثالثا : إن " **الله هو مصدر الدين** " ، وليس " **الدين هو مصدر الله** " . ففى الواقع ؛ تمثل القضية الأولى وحدانية " الله " ووحدانية الدين ، بينما تمثل القضية الثانية " الشرك بالله " وتعدد الأديان . وبمفهوم " **الله هو مصدر الدين** " ، يكون " **الله** " ــ سبحانه وتعالى ــ قد أعفى الإنسان من الاجتهادات فى تعريف الدين ، كما يكون قد أعفاه أيضا من الاجتهادات فى تعريف ذاته (أى تعريف الذات الإلهية) ، وكذا تعريف الإنسان والغايات من خلقه . وبهذا المعنى يكون الله ، سبحانه وتعالى ، قد جنب الإنسان الوقوع فى الوثنيات الفكرية الخاصة بالتعدد والشرك ، طالما أن التأهيل الفطرى للإنسان لا يسمح له بتناول مثل هذه القضايا وبحثها معتمدا فيها على ذاته وملكاته الفكرية فقط .

ولقد رأينا ــ إلى الآن ــ أن الفكر السائد لدى البشرية هو أن " **الدين هو مصدر الإله** " . وبهذا الفكر تعددت الأديان ، حيث أصبح من حق كل دين أن يقوم بتعريف إلهه بالصورة التى يراها ويهواها كهنة العقيدة ..!! ولهذا يصعب ــ فى هذه الحالة ــ عقد المقارنات العلمية بين هذه الوثنيات الفكرية والدينية ..!!

رابعا : الرجوع **بإنسان نهاية الحضارات** ليقف مرة أخرى ــ **كإنسان بداية الحضارات** ــ تماما ؛ خاشعا متضائلا بجوار الظاهرة الطبيعية سواء بسواء .. أمام الوجود " الإلهى " المتعالى . ولقد رأينا أن الظاهرة الطبيعية قد وقفت ــ لوقت طويل ــ حائلا بين **إنسان منتصف الحضارات** ، وبين " الله " سبحانه وتعالى . ولهذا قد حالت الظاهرة الطبيعية طويلا دون إدراك الإنسان لله . ولكن بعد أن تخطى إنسان نهاية الحضارات معنى الظاهرة الطبيعية ، وجد نفسه يقف إلى جوارها جنبا إلى جنب ــ كجزء مكمل لوجودة ــ أمام هذا الوجود الإلهى المتعالى .. لكي تتصافر المتناهيات (أى تصبح أصفارا) أمـــام هذا الوجود الإلهى المتعالى واللامتناهى . فلا فرق بين إنسان نهاية الحضارات وبين إنسان بداية الحضارات أمام الله ، إلا أن الأخير أصبح أكثر رؤية لله ــ سبحانه وتعالى ــ عن ذى قبل . وتزيد هذه الرؤية وضوحا كلما إزداد علم الإنسان . ويصل الإنسان برؤيته إلى حد الإدراك الكامل بوجود " الله " ، أو إلى اليقين الكامل ، وذلك عند المتناهى العلمى والحضارى والزمنى لوجود الإنسان على سطح هذا الكوكب الضئيل ؛ كوكب الأرض .

خامسا : لقد كان من الضرورى إعادة صياغة الدين بالطريقة التى تضمن عدم تسرب الأديان الوضعية من خلال هذا التعريف ، كما تم وضع الشروط المصاحبة والضرورية للحكم على صحة الدين وأن مصدره هو " الله " (ﷻ) ، وليس مصدره الإنسان . وبهذا يمكن الحكم الآن على صحة الأديان الموجودة على ساحة الفكر البشرى ومدى مصداقيتها.

سادسا : كما تم بيان أن " **القضية الدينية** " (قضية الحكم على صحة المضامين الدينية) و " **القضية الإلهية** " (قضية إثبات وجود الله) هما ــ فى الواقع ــ قضيتان مستقلتان تماما كل منهما عن الأخرى ، ولكل منهما طبيعتها الخاصة وبراهينها المميزة . فبينما تكون " القضية الإلهية " قضية فطرية فى المقام الأول ، نجد أن " القضية الدينية " هى " قضية علمية كلية " أي قضية عقلية .. فى المقام الأول والأخير ، وليس هذا فحسب بل تستلزم القضية الدينية ، براهين أشد صرامة من البراهين اللازمة للبرهنة على صدق " النظريات الفيزيائية الحديثة " .

سابعا : ثم رأينا أن الفكر الفلسفى منذ بدء الحضارة البشرية وحتى الفلسفات المعاصره لم يقد الإنسان إلى فكر يذكر عن تعريف الإنسان ، أو الوجود ، أو تعريف الكمالات الإلهية . فالفكر البشرى قاصر ــ بذاته ــ قصورا كاملا عن تناول مثل هذه المواضيع ، والوصول فيها برأي يمكن أن يعول عليه .. أو القطع بصحته .

ثامنا : ونشير هنا إلى أننا قد افترضنا فى بداية هذا الكتاب المسلمة الأساسية التى تقول بأن "**الديانة الإسلامية هى ديانة صحيحة** " ، وقلنا بأنه ليس ثمة قيمة فيما يفرض من مسلمات ، ولكن القيمة فيما تؤدى إليه هذه المسلمات من نتائج قابلة للقياس والتحقيق . كما قلنا بأن البرهان على صحة المسلمات ، مرتبط أساسا بصحة النتائج المترتبة عليها ، أو المنبثقة منها . وكما رأينا ، فإنه قد ثبت ثبوتا مطلقا صحة كل النتائج المترتبة على هذه المسلمة الأساسية المذكورة ، من خلال ما ناقشناه هنا فى هذا الكتاب من أمثلة كثيرة مختلفة ومتباينة ، مما يقودنا هذا حتما إلى القول بأن هــذه المسلمة هى مسلمة حقيقية فعلا ؛ **أي أن الديانة الإسلامية هى ديانة صحيحة فعلا** . ومع ذلك فقد فضلنا ألا ننتهى إلى هذه النتيجة في نهاية هذا الكتاب ، لأن مازال للقصة بقية أو مازال للقضية بقية . وهذه البقية يفرضها علينا وجود **العلم الإنسانى الموجود على الساحة البشرية** ، ولم نتعرض له فى هذا الكتاب إلا من خلال بعض الأمثلة العابرة ، والتى لا تكفى للإحاطة الكاملة بدور العلم والفيزياء الكامل فى المساهمة الفعلية والإيجابية فى إدراك صحة وصدق هذه المسلمة .

لهذا فقد تم أرجاء الحكم النهائى على صحة هذه المسلمة لحين الانتهاء من تقديم العلم البشرى كله فى صورة جرعة مكثفة ، كما فعلنا هنا مع الفلسفة البشرية كلها ، والتى تم تقديمها فى هذا الكتاب فى الفصل الرابع . وقد أوضحنا مدى قصور الفلسفة ، وقصور دورها وعدم جدواه فى تقديم أى فكر إيجابى عن معرفة الغاية الحقيقية من وجود الإنسان وماهيتة ومصيره . كما وإنها ـــ أى الفلسفة ـــ لم تقدم أيضا ، أى فكر يذكر حول المعرفة الحقيقية بـــ " الله " ، سبحانه وتعالى ، وماهية كمالاته .

وفى الكتاب التالى إن شاء الله [٢] ، سوف نرى إن العلم ـــ بذاته ـــ هو الآخر قاصر عن تقديم أى شىء يذكر ، عن " الإنسان " أو عن " الله " . فالعلم يمكن أن يؤدى إلى التجربة الدالة على صحة المسلمة الدينية ، إذا ما أحسن توجيهه فقط . أما العلم بذاته ـــ أى بدون توجيه ـــ فهو قاصر عن أن يكون له أى دور إيجابى فى أن يقود الإنسان ـــ بمفرده ـــ إلى حل لغز الوجود والمصير . فالعلم مستقل عن الدين هو بمثابة الجثة بلا حياة ..!! أو هو بمثابة التجربة المجردة التى ليس لها نتائج لغياب الهدف المطلوب منه ، نظرا لغياب النظرية الأساسية أو الحاكمه له ألا وهو الدين .

فالمنهاج الإلهى ؛ هو الدليل الذى يقود الإنسان وعلمه نحو الغايات الكلية من الوجود والمصير. وبدون هذا المنهاج يصبح الوجود غير موجه نحو غايات عليا ، بل يصبح " **الوجود للوجود فقط** " .. أى وجودا عشوائيا ..!! وبهذا تتحول الحياة إلى " **الحياة للحياة** " أى إلى خواء مطلق ، وعبء يثقل كاهل الإنسان ، لينتهى به الحال إلى العدم ..!! وبديهى ـــ كما انتهينا هنا ـــ إن هذا ليس هو الواقع الحق ..!! وسوف نرى ، إن العلم الإنسانى كله إنما يعكس حدود الضعف المتناهى لما هو عليه الفكر الإنسانى فعلا ..!! إذا ما قورن بما قدمه الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ من علم لدنى للإنسان من خلال وحيه المطلق كما جاء فى القرآن المجيد .

تاسعا : تم بيان أن " الإدراك الفطرى بوجود الله " ، و " فطرية التدين " لدى الإنسان ، وعملية " غسيل المخ " الجماعية التى يجريها كهنة العقيدة على الأتباع أو الشعب ، **هذا إلى جانب عدم فهم معنى الدين (البلاغ) ومعنى دور الدين فى حياة الإنسان (التشريع المطلق)** ، هى القضايا الثلاث الرئيسية والمسئولة المسئولية المباشرة عن تعدد الأديان بشكلها الراهن حاليا . كما تم البرهان ، بما لايدع مجالا لأى شك ، على وثنية وخرافة الديانتين اليهودية والمسيحية وذلك برؤية علمية شاملة وحقيقة مجردة بدون أى فلسفات ، أو تجاوزات فى المعنى

---

[٢] " **الدين والعلم ... وقصور الفكر البشرى** " **لنفس مؤلف هذا الكتاب . مكتبة وهبة / القاهرة .**

المراد ، وذلك من منظور البند السابق . فهي ديانات تؤصل للخطيئة وتدعوا المتلقي للعمل بها . كما تموج بالخرافات والأساطير غير الواعية على طول منهاجها ..!!

عاشرا : وننهى هذه الخاتمة بتكرار القول ، بأن هذا الكتاب ليس فكرا تبشيريا ، بدين ما ، بقدر ما هو تبشير بالوجود الحقيقي للإنسان ، وإن هذا الوجود هو غاية ومحور . وأن **الإنسان محاسب أولا ، فيما هو محاسب عليه ، على صحة التوجه إلى الله ، وبلا فلسفات** . فيجب أن يعي الإنسان أن " **القضية الدينية** " ليست " **قضية إنسانية** " بل هى " **قضية إلهية** " وبالتالى :

فهى ليست " قضية صراع بين حضارات مختلفة " أو " قضية صراع بين أيديولوجيات مختلفة " ، كما وأنها ليست " قضية تبشيرية " فى أديان تتخبط فى تحديد هوية أصنامها . وهى أيضا ليست " قضية سياسية " لكسب " أتباع ما أو أرض ما " . ولكنها ــ فى الواقع ــ هى " **قضية وجود الإنسان ذاته ومصيره هو** " . ذلك الإنسان الذى سرعان ما سيدب فيه الفناء وتدركه الشيخوخه ، هذا إن لم يدركه الموت قبل هذا ، ليغادر هذه الحياة إلى اليقين الكامل ..!! ليقف وجها لوجه أمام الحقيقة المطلقة ، حيث يكون هو الخاسر الوحيد لنفسه فى هذا الوجود ، إذا لم يتنبه إلى المعنى الحقيقى للقضية الدينية ، لأنه بهذا المعنى سوف تفوته الفرصه الحقيقية أو الفرصة الوحيدة لتحقيق الغايات من خلقه ، لأنه لم يدرك القصد الإلهى من هذا الخلق ، كما وأنه لم يدرك المعنى الحقيقى من وراء وجوده ، ومن وراء وجود هذا الوجود .

ولا يبقى غير التذكير بأن رحلة حياة الإنسان عبارة عن طريق واضح المعالم يملؤه النور . بدايته نور ، وأوسطه نور ، ونهايته نور ، وطريقه لا يحوى حتى الظلال . ولا لبس ولا غموض ولا يوجد أى تضحيات عقلية فيه .. والحقيقة المطلقة فى انتظاره .. عند أول منعطف من هذا الطريق .. طريق حياته هذا .. وهو ملاقيها .. شاء هذا أم أبى ..!!

﴿ وكَذَلِكَ جَعَلْناكُم أمةً وَسَطًا لِتكُونُوا شُهَداءَ عَلَى الناسِ وَيــكونَ الرَّسُولُ عَليكُمْ شَهِيدًا .. (١٤٣) ﴾

(القرآن المجيد : البقرة {٢} : ١٤٣)

المؤلف .. حدائق القبة / ١٥ نوفمبر ٢٠٠٩ ..